دار الثقافة
عباقرة هزموا اليأس
فايز فرح

عباقرة هزموا اليأس

فايز فرج



طبعة أولى

صدر عن دار الثقافة ص .ب . ١٢٩٨ - القاهرة

رقم الايداع بدار الكتب٥٨٤٦ / ٨٨
طبع بمطبعة دار الجيل للطباعة

اهداء

الى أسرتى الصغيرة ..

زوجتى منى الملاخ

ابنتى نورا

ابنى ناجى

فايز فرح

مقدمة

حياة العلماء والادباء والفلاسفة هي نموذج للانسان كيف يمكن اكتشاف موهبته واستعداده ؟ وتوجيه نفسه الى الطريق السليم نحو تحصيل العلم والادب ، ثم التفوق والأبداع والعبقرية ، وليس كل انسان عبقريا بالطبع فنسبة العبقرية فى المجتمع واحد فى المليون ، ولكن الموهبة موجودة بنسبة واحد فى المائة أو أكثر ، ومن فضل الله على الانسان أن خص كل واحد باستعداد معين ، هذا يملك استعدادا فنيا ، وذاك يملك استعدادا أدبيا وثالث استعداده علمى ... وهكذا .. والانسان الناجح هو الذى يكتشف استعداده ويسلك الطريق الصحيح نحو النجاح فى الحياة ، والانسان العادى يمكن له أن ينجح ويتفوق حتى لو لم يملك الموهبة أو العبقرية ، ومن أسباب النجاح فى الحياة قراءة الكتب ، وبخاصة حياة هؤلاء العباقرة الذين أثروا العالم بعلمهم وأدبهم ونظرياتهم ، وغيروا وعدلوا فى مستقبله .

وقد اخترت لهذا الكتاب مجموعة من العباقرة الذين هزموا اليأس وتفوقوا على أنفسهم ، وانتصروا على عاهاتهم ، وليست العاهة جسمية وحسب ، وانما هناك عاهات اجتماعية لا تقل عن الجسمية فى أهميتها وعرقلتها لحياة صاحبها ، فمن العباقرة الذين انتصروا على عاهاتهم الجسمية اخترت عميد أدبنا العربى الدكتور طه حسين ، والسيدة الفاضلة معجزة القرن العشرين الامريكية هيلين كيلر ، والفنان الالمانى العالمى بيتهوفن ، أما العباقرة الذين انتصروا على عاهاتهم الاجتماعية أو عاهات مجتمعاتهم فقد اخترت منهم : الايطالى المبدع العالم الفنان ليوناردو دافنشى ، الذى عاش يبحث عن أب له لينتسب اليه فلم يجد ، وأبو الفلسفة سقراط الذى تقدم وشرب كأس السم ومات فداء لمبادئه

دون خوف من الموت ، والعالم الطبيب الالمانى البرت شفايتزر الذى ترك أوربا ليعيش فى افريقيا يعالج المرضى حتى كف بصره ، ترك الحضارة وعاش حياة بدائية من أجل الانسان الافريقى .

ألم يهزم هذا الطبيب الانسان اليأس من ظلم الانسان لاخيه الانسان ، وضرب مثلا رائعا لحب الانسان لاخيه الانسان ، بل والتضحية من أجله .

ثم تناولت حياة ابراهام لنكولن الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الامريكية الذى وحد بينها وحرر العبيد ، ومات شهيدا لافكاره وحبه للانسانية ، كذلك كانت حياة غاندى الزعيم الهندى الذى هاجم التفرقة العنصرية ، وقدم حياته قربانا عنها ، أما الكاتب الروسى تولستوى فهو الاديب الذى اراد أن تكون حياته وأمواله ملكا للناس جميعا ، فترك بيته ، وكانت نهايته فى محطة السكة الحديد .

هؤلاء العباقرة تفوقوا على أنفسهم ، وأحبوا الانسانية ، وبذلوا أنفسهم عنها ، فاستحقوا أن نذكرهم ، ونكتب قصص حياتهم لتكون نموذجا لكل انسان حتى ينجح فى حياته ، ويكتشف ذاته ، ويساهم فى سعادة البشرية بقدر طاقته واستعداده .

المؤلف

فايز فرح

في هذا الكتاب

سقراط

يهزم الجهل ويهزأ بالموت

« لا تعبأ بما يقوله الناس بل اعمل
بما يمليه عليك العقل الحكيم »

« **سقراط** »

انسان فاضل عاش قبل الميلاد ، لا هم له الا دفع الناس الى الفضيلة والخير والايمان والمعرفة والحق ، التف حوله الشباب ، واقترب منه الحكماء واحترمه وهابه الاشرار ، رجال السياسة الذين يتاجرون بها ، والسوفسطائيين الذين وجدوا فى شخصه منافسا خطيرا يعلم الناس مجانا ، وظلت سيرة الرجل عطرة على مر العصور ، وتناوله المؤرخون والفلاسفة والادباء بالنقد والتقييم ، فمنهم من عدّه شخصية اسطورية وهمية لا يمكن ان يجود بمثلها الزمان ، ومنهم من احترمه واحبه وقربه من القداسة وشبهه بالسيد المسيح ، واتفق الجميع على حكمة الرجل وبساطته وشجاعته وابوته للفلسفة .. انه سقراط الذى نادى بالفضيلة ونشر الخير ودافع عن الحق ، واستشهد فى سبيل ايمانه بمبادئه واحترام قانون دولته فهزم اليأس ، وهزأ بالموت.

ولد سقراط فى اثينا عام ٤٧٠ قبل الميلاد – وان كانت بعض المراجع تشير الى ميلاده عام ٤٦٩ ق م – من اسرة متواضعة اقرب الى الطبقة الدنيا منها الى اى طبقة اخرى ، وكانت امه « فايناريت »PHAINARETE تعمل قابلة (اى مولدة) متطوعة . ويحذرنا « الفريد ادوارد تيلور » فى كتابه عن سقراط من الوقوع فى الخطأ فنحسبها قابلة محترفة اذ أن هذه الحرفة لم تكن قد عرفت بعد ، اما ابوه « صوفرونيقوس » SOPHRONIQUE فكان يعمل فى صناعة التماثيل ، وككل اطفال اثينا تعلم سقراط مهنة ابيه ولكنه لم يشأ ان يتخذها هدفا له فى المستقبل ، وتعلم كذلك التاريخ والموسيقى والتمرينات العسكرية ، وكان يشارك فى المجالس العامة ويستمع الى خطباء السياسة ، ويذهب الى النوادى الرياضية ، ويناقش جماعة السوفسطائيين الذين انتشروا فى كل مكان يعلمون الشباب ويناقشون الشيوخ فى ارائهم الغريبة التى اعتنقوها ، وكان زعيمهم « بروتاجوراس » ينادى بأن الانسان مقياس كل شيء ، وان الانانية اساس الاخلاق ولا ينبغى اطاعة القانون ، وكانت جماعة السوفسطائيين هذه على قدر كبير من الذكاء ، يجعلها تثبت الشيء وتبرهن على نقيضه فى نفس الوقت .

اكتملت رجولة صاحبنا سقراط ، واشتد ذكاؤه ، واشتعل تفكيره ، ولم يمنحه الله جمالا جسميا بقدر ما منحه من ذكاء وحكمة وعقل كبير ، بل كان قبيح المنظر ، ابعد ما يكون عن الوسامة والجمال ، كان جاحظ العينين ، افطس الانف ، غليظ الشفتين ممتلىء الجسم ، متوسط الطول ، حافى القدمين ، خشن الملبس ، نادرا ما يبدل عباءته ، واجتمعت له ثلاث ميزات كما كان يردد دائما ، وهذه الميزات من اسباب سعادته ، الاولى انه ولد انسانا وليس حيوانا ، والثانية انه ولد رجلا وليس امرأة ، هذا مع انه كان يعتقد ان المرأة ليست أسوأ من الرجل فى استعدادها الفطرى ، اما الميزة الثالثة فهى انه ولد يونانيا وليس بربريا - البربرى ليس الاسود اللون والبشرة وانما هو الانسان غير اليونانى اى الاجنبى ، وكان ينظر اليه فى ذلك الوقت نظرة ازدراء وسخرية - احب سقراط التأمل وعشق الفكر ، كان يفرغ الى نفسه كثيرا بل ينسى نفسه بالساعات الطوال غارقا فى التأمل فى فكرة معينة ، يحكى لنا تلميذه النجيب افلاطون انه بينما كان سقراط يخدم فى الجيش شغلت باله مشكلة لم يجد لها حلا ، وظل يتأمل باحثا عن الحل منذ شروق الشمس حتى وقت الظهيرة ولاحظ زملاؤه حالته فراقبوه من بعيد اشباعا لفضولهم ومعرفة ماذا سيفعل ومتى تنتهى حالة التأمل هذه ، وظلوا هكذا حتى جاء المساء وسقراط يقف كما هو مستغرق فى التفكير ، وازداد زملاؤه فضولا وشغفا لمعرفة النتيجة حتى جاء الصباح التالى فانصرف وانصرفوا .

لم يقتنع سقراط برجال السياسة ولا بجماعة السوفطائيين بل اعتبرهم وصمة فى جبين الاخلاق ، وشعر بالتباين الكبير بين ما يؤمن به وبين ما ينادون به ، ثم تسرب الى نفسه وقلبه هاتف يهز اعماقه يحثه على الجهر بآرائه والمناداة بالفضيلة وتعليم الشباب وكل الناس .. الخير والحق والجمال .. واخيرا جاءت نبوءة معبد « دلفى » لتؤكد له صدق هذا الهاتف ، قالت نبوءة الاله « ابولون APOLLON » ان سقراط احكم رجل فى اثينا ولم يصدق صاحبنا النبوءة فى البداية ، ومن ثم هام على وجهه فى الطرقات والميادين والحوانيت والنوادى

والاسواق « الاجورا » يناقش الناس ، المؤمنين والملحدين ، والشيوخ والشباب ، العلماء والبسطاء ، السياسيين والشعراء ، يناقشهم فى معنى الفضيلة والخير والحق والجمال والعدل والشجاعة والمعرفة والسعادة ، وكان كل منهم يقول تعريفا مختلفا عن الاخر وهو لا يعرف ماذا يقول ولكن غروره وكبرياءه ، يدفعه الى ان يتكلم اى كلام بدلا من ان يعترف بجهله وعدم معرفته ، واستخدم سقراط مع مناقشيه طريقة جديدة فى المناقشة هى التهكم والتوليد ، اى يطرح السؤال ثم يحاور مناقشه حتى يوقعه فى تناقض واضح فما يلبث ان يعترف بجهله ، وبهذا يستخرج سقراط رأيه على لسان غيره ، وهذا ما قصد اليه بكلمة توليد ، ولذلك قال : كانت أُمّى مولّدة أجسام ، أما انا فمولّد عقول وافكار ..

جذبت هذه الطريقة الجديدة فى المناقشة الشباب الى سقراط المعلم المتواضع غير المغرور بعلمه ، الذى كان يردد دائما .. أنا أعرف عن نفسى أننى لا أعرف شيئا .. وكان هذا القول هو سبب نبوءة الاله ابولون بأن سقراط احكم من فى اثينا ذلك لانه متواضع ، ومع معرفته الكثيرة يردد انه لا يعرف شيئا .

اخذ سقراط يعلم الشباب علانية ويدعوهم الى مبادئه وآرائه واهمها :
★ الحياة التى تخلو من امتحان النفس ليست جديرة بالبقاء ، الفضيلة لا تشترى بالمال ولكنها المعين الذى يتدفق منه المال ويفيض به الخير – الحب هو تعطش الروح البشرية الى الجمال المقدس .. يستحيل على الرجل الصالح ان يصاب بسوء لا فى حياته ولا بعد موته .. لا خير فى الحياة الا اذا كانت خيرة عادلة.. الاعتدال والشجاعة والحق والنبل هى لآلىء النفس التى يجب ان تتحلى بها ..

لا يحق لك الانتحار لأنك لست ملكا لنفسك بل أنت ملك لله ، خير لك ان تكون مظلوما عن ان تكون ظالما .. لا تعبأ بما يقوله الناس بل اعمل بما يمليه عليك العقل الحكيم ..... لا تأخذ بالثأر ولا ترد الشر بالشر ولا تضر بأحد .. أيسر وأشرف لك ان تبادر باصلاح نفسك من ان تهاجم الناس .. لا تكن فى خلاف مع نفسك ولا تقل غير ما تؤمن به حتى لو أدى بك

ذلك لان تكون فى جانب ومعظم الناس فى الجانب الاخر ... لا يصلح لسياسة أمة إلا الفاضلون ، والفضيلة الاجتماعية السياسية هى العدالة .. من اقام على ظلم وان صغر لا يعدم الظلم ان يجر ظلما بعده .. الفيلسوف يريد الموت لانه انفصال الروح عن الجسد الذى يكبلها بالاغلال ويمنعها من رؤية الحقيقة ، الفضيلة هى المعرفة .. العدالة ليست منحة من القاضى وإنما هى حق للمتقاضين عليه أن يوفرها لهم .. كما كان سقراط يؤمن وينادى بالحكمة المعروفة وقتذاك .. اعرف نفسك بنفسك .. ولعل ايمانه بهذه الحكمة ومناداته لها هو السبب فى أن جعله بعض النقاد مؤسس الفلسفة الوجودية إذ هو بهذه الحكمة يطلب من الانسان ان يهتم بحياته ووجوده ، كما انه عن طريقها ايضا انزل الفلسفة من السماء الى الارض كما قال شيشيرون ، انزلها وحولها من البحث والتفكير الميتافزيقى فيما بعد الطبيعة واصل الكون والخلق الى البحث والتفكير فى حياة الناس ومشاكلهم اليومية ومعتقداتهم المختلفة وقيمهم واخلاقهم بغية ايجاد حل لها وطريقة مثلى لتحقيق سعادة الانسان .

* ظل سقراط يعلم الشباب مبادئه بالمجان ويحثهم على عمل الخير والتعلق بالفضيلة والايمان بالحق وكراهية الظلم ، وكان يجهر باخطاء الحكام ورجال السياسة ويهاجم السوفسطائيين النفعيين الذين يتاجرون بعلمهم ويبيعونه ، ورد احدهم عليه قائلا .. ان الخدمات التى تؤدى بلا مقابل قد لا تقدر لها قيمة.. اجاب سقراط .. « ان الصديق الصالح يمنحنى نفس السرور الذى يمنحه الفرس الطيب او الكلب او طيور الصيد لرجل من طراز اخر ، بل اكثر فاذا عرفت شيئا صالحا فانى اعلمه لاصدقائى الذين اتوسم فيهم انهم سيقدمون لغيرهم نفعا ، واضم نفسى الى اصدقائى فى الكشف عن كنوز الفطنة القديمة ، التى تركها الأقدمون فى اوراق مسطورة فاذا وجدنا فيها شيئا صالحا التقطناه واحسسنا اننا كاسبون كسبا عظيما اذا اصبحنا اصدقاء ..

* اعتبر سقراط هذه رسالته التى يجب ان يعيش لها والتى اعده الاله للجهر بها وتنفيذها ، وتحمل فى سبيل رسالته الكثير من المتاعب والاضطهادات ، تماما

كما تحمل الرسل والانبياء من اجل رسالاتهم ومبادئهم ، والعجيب ان اولى هذه المتاعب جاءت من اقرب الناس اليه ، من زوجته « كزنتيب » فقد كانت امرأة عادية غير محبة للعلم والفلسفة ، ومن ثم لم تستطع ان تفهم زوجها وتقدره حق التقدير ، بل كانت تتبعه فى الاسواق والطرقات وتقذفه بالماء فى اثناء لقائه بتلاميذه ومريديه ، ولم تكتف بذلك وانما كانت تضربه وتشق عباءته عن ظهره وكان رغم ذلك يحتفظ بهدوئه وحكمته ويقول .. « لقد اوتيت امرأة عنيفة جامحة فاذا صبرت عليها واحتملت اذاها هان على ما قد القى من الناس جميعا .. » وهكذا المفكر والاديب والفنان اذا كان حظه سيئا اهداه القدر زوجة لا تقدره ولا تشجعه ولا تفهم طبيعة عمله ومدى حساسية نفسه ، ولهذا قال سقراط .. « يجب ان تتزوج مهما كان الامر . فاذا تزوجت من زوجة طيبة فانك ستصبح سعيدا وسعيدا جدا واذا تزوجت من زوجة سيئة فانك ستصبح فيلسوفا .. وهو امر طيب لكل رجل .. والغريب ان افلاطون وهو المرجع الاساسى لنا والمصدر الموثوق به عن سقراط لا يذكر شيئا عن مساوئ هذه الزوجة وهناك قصة تقول ان سقراط تزوج باخرى تدعى « موتو » ولكن هذه القصة غريبة لم يجمع عليها المؤرخون .

★ اما المتاعب الاخرى التى لقيها سقراط فكانت من مجادليه الذين يوقعهم فى الخطأ والتناقض ويثبت لهم جهلهم وغرورهم ، اذ كان بعضهم ينقض عليه ويضربه ويشده من شعره احتقارا له وكعادته كان يصرفهم بهدوء وصبر جميل وفى هذا يصفه احد تلاميذه فيقول : اذا خالط الناس تشبه بالاطفال والبسطاء واذا تكلم ارتجفت قلوب محبيه وجرى دمعهم وكأنهم يستمعون الى الحان الناى الساحرة . وتمر السنوات فيزداد الحاقدون حقدا والمعجبون اعجابا والمحبون حبا . لكن اساليب الشر كثيرة ، وهذا كاتب معروف فى الملهاة يدعى اوستوفان .. يهاجم سقراط فى رواية السحاب ويصوره معلقا بين الارض والسماء يدعو الى عبادة آلهة جديدة ويفعل كما يفعل السوفسطائيون فيقلب الحق باطلا والباطل حقا – كلمة سوفسط معناها معلم – ومن ثم يصبح

تلاميذه شرا على المجتمع ، وليت الامر انتهى على ذلك ، بل فوجئ سقراط ذات صباح وهو خارج الى الميدان كعادته بمنشور معلق على لوحة وسط الميدان يتهمه بعدة اتهامات باطلة .. كتب فى المنشور ..

★ سقراط مذنب لارتكابه جريمة الكفر بالآلهة،آلهة اثينا ولايمانه بآلهة جديدة خاصة به وهو مذنب ايضا لتشكيكه الشباب وافساده ، وعقوبة ذلك الموت ..

★ لم ينزعج سقراط من هذا الاتهام بل اخذ الامر كعادته بالتهكم والسخرية فهو يعرف اعداءه الكثيرين النفعيين تجار السياسة ، والسوفسطائيين الذين لا اخلاق لهم .. وتقبل الاتهام وتحمل الظلم ، فهو الزاهد فى الدنيا ، الذى يعيش على كسرة من الخبز وبعض ثمر الزيتون وقليل من النبيذ ويمشى حافى القدمين صيفا وشتاء غير مكترث بالثلج أو حرارة الشمس – ثم ماذا يعنى سقراط بهذا الاتهام وهو الذى لا يهتم الا بالروح ويعتبر الجسد عائقا فى سبيل انطلاقها ، وحتى اذا حكم عليه بالاعدام فان روحه ستنطلق من قبضة الجسد وستحلق حيث الخير والحق والجمال السرمدى ..

★ رمى سقراط بهذه الاتهامات الباطلة ثلاثة اشخاص : الشاعر التراجيدى « ملتوس MELTOS » وخطيب هو « ليقونLYCON » وتاجر الجلود (انيتوس Anytos) وهو ايضا احد زعماء الديمقراطية ، والطريف ان انيتوس هذا اتهم سقراط حقدا عليه ، اذ ان ابنه كان تلميذا من تلاميذ سقراط النابهين ، ولحبه لسقراط كان يترك عمل أبيه فى تجارة الجلود ويذهب حيث متعة الفكر وروعة الحوار ، ولذة البحث عن الفضيلة .

★ تشكلت المحكمة من خمسمائة من المحلفين ، فلاحين وتجار اختيروا بالقرعة وكان معظمهم جاهل غير متعلم لا يعرف عن سقراط غيرما اتهم به من الالحاد وافساد الشباب .. وانه رجل مهيج ، هزلى ، سوفسطائى يثبت أن الخيرشر ، والشر خير ، وعندما وقف سقراط امامهم واخذ يناقشهم ويفند اتهاماتهم ودعواهم فى صبر وهدوء ، تعجبوا لفصاحته ودهشوا لقوة حجته فى اقناعهم ،

قال سقراط لهم ..

« ..إن حياتى وما قدمت من خير أكرم مما أعددت من دفاع » .. ثم استطرد « انكم توجهون الى تهمة افساد الشباب لمغنم شخصى ولكن تعاليمى هذه لم تجلب علىّ غير الفقر المدقع .. اننى أسعى وراء الحق وادعو الآخرين لمشاركتى فى الجد فى هذا الطلب ، وذلك طاعة منى لله ، فانا أطيع الله بوصفى فيلسوفا ، تماما كما كنت اطيع قائدى بوصفى جنديا . اما تهمة افساد تلاميذى فردى على ذلك هو اننى بلغت من العمر حدا يؤهلنى لأن أدرك اننى إذا كنت سببا فى ضرر وايذاء الآخرين ، فلن اصيب بالاذى سوى نفسى ، وليس هناك انسان فى كامل قواه العقلية يرغب فى ان يجلب الأذى لنفسه ولذلك فانا انكر اننى قد سببت الاذى يوما عن قصد لاى فرد فى هذا العالم ، وحقيقة الامر ايها القضاة انكم تقفون منى هذا الموقف العدائى لاننى قد كشفت على الملأ ادعاءكم المعرفة كما اننى قد خلعت النقاب عن جهلكم المستور ولم افعل ذلك لأحط من قدركم بل على العكس لأرفع من هذا القدر ولأوجهكم إلى حكمة أعظم ، ثم القيام بعمل أفضل .. أيها الأثينيون .. لست خجلا مما قمت به من أعمال قد تؤدى بى إلى الموت قبل ان ينتهى عمرى الطبيعى ، وذلك لأنى أومن بأن الرجل الذى يجد فى نفسه الكفاية للقيام بعمل من الأعمال ينبغى ألا يأخذ فى اعتباره مسألة موته او حياته وألا ينظر الا الى شىء واحد بعد .. هل كان مصيبا أو مخطئا ؟ ، إننى أخشى العار ولكننى لا أهاب الموت لانه ليس شرا ، وهو احدى اثنتين ، اما أن يكون كرقدة النائم لا تزعجه الاشباح وهذا نفع بلا ريب .. واما ان يكون ارتحالا الى مكان اخر افضل ، وهذا خير كل الخير .. ايها الرجال الاثينيون .. اننى اجلكم واحبكم ولكننى اطيع الله قبل ان اطيعكم والله يامرنى أن اعلم مواطنى الفلسفة ، فاذا أطلقتم سراحى فانى مواصل ارشاد الناس وطاعة الله ، وسأقول لكل من اقابله .. إنه من العار ان نكدس الثروة بدلا من ان نكتسب الحكمة ، لان هذه هى الرسالة التى وهبتنى اياها الارادة الالهية .. ايها الاثينيون لن تفيدوا بقتلى الا

امدا قصيرا .. وستدفعون له ثمن ما تنطلق به السنة السوء تذيع عن المدينة العار ، ستقول عنكم انكم قتلتم سقراط الحكيم ، فسيدعوننى وقتئذ بالحكيم .

وان لم اكن حكيما ، تقريعا لكم ، ولو صبرتم قليلا لظفرتم بما تبتغون بطريقة طبيعية ، فلقد طعنت فى السن كما ترون ، وبلغت من العمر سبعين عاما ، فلم يبق لى فى الدنيا على أية حال الا وقت قصير وليس من الاهمية بمكان اذا انا رحلت الآن أم السنة القادمة ، ولكن للأمر اهميته العظمى إذا ما قررتم إعدامى او لم تقرروا ، اننى افوض أمرى اليكم والى الله ، وقبل ان تصدروا قراركم فانى اطالبكم بان تراجعوا مصالحكم ومصلحتى على السواء ...

كان من المألوف إبان تلك السنوات ان يأتى المتهم الى المحكمة بزوجته وابنائه واقاربه لاستعطاف القضاة وتخفيف الحكم عليه ، وكان يمكن لسقراط أن يفعل ذلك ، ولكنه يأبى ان تصل حاله الى هذا الوضع وتتحطم مبادئه الاخلاقية التى آمن بها وطالما نادى بها وفى هذا قال ..

« اننى رجل ككل الناس خلقت من لحم ودم . لا من خشب وحجارة ولى اسرة ولى ابناء عددهم ثلاثة . بلغ أحدهم الصبا ، وما يزال الآخران طفلين ومع ذلك فلن أسوق إليكم منهم أحدا يستجديكم براءتى ، ولست افعل ذلك اعتدادا بنفسى او ازدراء بكم . وانما اعتبر ذلك تصرفاً يضع من قدرى ويحط من شأنكم ويصم الدولة بأسرها وصمة عار ، فلا يجوز لرجل قضى من العمر ما قضيت ، وذاع صيته فى الحكمة بحق او بغير حق ، ان يحقر نفسه ويفعل ذلك ..

هكذا دافع سقراط عن نفسه دفاعا عظيما رائعا منطقيا شد انتباه أعضاء المحكمة . وانتزع اعجابهم ولم يكن دفاعه بغية الحكم بالبراءة وانما بحثا عن الحقيقة التى كرس حياته دفاعا عنها ، ورفض فى نفس الوقت أن يدافع عنه أحد .. فعندما تقدم (لوسياس) المحامى ليدافع عنه رده بأدب وهدوء قائلا .. ان كلامك جميل لكنه لا يوافقنى واسلوبك ممتاز ولكنه لا يليق بالحكماء ..

وعلى رغم هذا الدفاع المنطقى ، واعجاب معظم اعضاء المحكمة ، صدر الحكم على سقراط بالاعدام ، وكان طبيعيا أن تكون الأغلبية قليلة ، فقد وافق على حكم الاعدام ٢٨٠ من المحلفين وعارضه ٢٢٠ ، وكان القانون يخول للمتهم اقتراح عقوبة اخرى أخف من عقوبة المحكمة ، فاقترح سقراط دفع غرامة مقدارها ثلاثون وزنا من الفضة وهي تعادل الآن حوالى ١٥٠٠ دولارا ، وقال للمحكمة : « لقد كرست حياتى لخدمتكم ولما كنت أمينا الى درجة لا أصلح معها أن أكون سياسيا فقد فضلت أن أسلك طريقة خاصة لأعظكم وأدفعكم الى الصلاح ، وفى الحقيقة اننى لا أدخر أى مال لكن صديقى افلاطون وبعض الأصدقاء الآخرين عرضوا على بسخاء أن يدبروا هذا المال .. »

رفضت المحكمة اقتراح سقراط واعتبرته تهكما وسخرية منها ، وقررت اعدامه بتناول السم .. فقال لهم فى هدوء .. « اننى اقبل الحكم فانا أفضل أن أموت وقد قلت ما يبدو لى انه حق ، على أن أعيش لاقول مضطرا ما ترون أنتم انه حق » .

* ظل سقراط فى السجن لمدة شهر بعد صدور الحكم . وذلك حتى ينتهى موسم الحج الذى كان يحرم فيه القتل فى اثينا .. وابان تلك المدة كان التلاميذ يزورون أستاذهم ويتناقشون ويتحاورون معه ليستزيدوا من علمه وحكمته فى شتى الموضوعات ، خلود الروح ، واجب المواطن ، أهمية احترام القوانين ، تصور الحياة الاخرى ، وغير ذلك ، ومن فيض حب التلاميذ فكر احدهم وهو افريطون فى طريقة ينقذ بها سقراط من الموت ، ووضع خطة كاملة محكمة ليهربوه من السجن ثم عرضها عليه ، وكله أمل وتفاؤل أن يوافق وينفذها ، وقال له ، إن حراس السجن أنفسهم سيساعدونه على الهرب لأنهم يؤمنون ببراءته ، لكن الأستاذ أعطى تلميذه درسا قاسيا ، فليست هذه هى الشجاعة ، وليست هذه هى أخلاق الرجل الذى أسس علم الأخلاق ، قال سقراط لتلميذه المحب افريطون ..

« هناك صوت يهمس فى أذنى كما تفعل نغمات القيثارة فى اذن المتصوف ، إنه صوت القوانين تحدثنى قائلة .. ياسقراط .. ماذا أنت فاعل ؟؟ أتريد بهروبك أن تهز كياننا ؟؟ هل تتصور دولة ليس لاحكام قانونها قوة ولا تجد من الأفراد إلا نبذاً أو طرحا ؟؟ أفكان ذلك ما قطعته معنا من عهد ، ما هى شكواك منا حتى تحاول بهروبك هدمنا وهدم الدولة معنا ؟؟ الم نأت بك الى الوجود ؟؟ فان كنا قد أتينا بك الى العالم ثم أطعمناك فأنشأناك افأنت جاحد ؟؟ انك قبل كل شئ ابننا وعبدنا كما كان آباؤك من قبل ، واذا كنا قد رأينا أن من الصواب اعدامك افتظن أن من حقك أن تجازينا إعداما باعدام ؟؟ وتستطرد القوانين فى حوارها الرائع الذى نسجه خيال سقراط تخاطبه قائلة .. إعلم ياسقراط أن من واجب الانسان ان يصدع بما يأمره به الوطن ، سواء أكان فى ساحة الحرب أم فى ساحة القانون ، لقد كنت تستطيع أن تقرر عقوبة النفى إذا أردت ، لكنك إدعيت أنك تؤثر الموت على النفس ، انك لم تبتئس من الموت ولكن ها أنت الآن قد نسيت تلك العواطف الجميلة وترفض أن تحترمنا نحن القوانين .. ياسقراط .. لا تدع نفسك بهروبك من السجن ومن المدينة موضع سخرية من أجل رغبة حقيرة فى استزادة الحياة زيادة ضئيلة وأنت هذا الشيخ الكهل ، إنك ستعيش ولكن كيف ؟ متملقا للناس جميعا ؟؟ وخادما للناس جميعا ؟ ثم أين ياترى ستكون تلك العواطف الجميلة التى تبديها حول العدل والفضيلة ؟؟ اصغ الينا إذن ياسقراط ، فنحن الذين انشأناك ، لا تفكر فى الحياة والأبناء أولا ، وفى العدل ثانيا ، بل فكر فى العدل أولا ، إرحل الآن بريئا مجاهدا لا فاعلا للرذيلة ...

لم يستطع التلميذ إقناع أستاذه بالهرب بل أعطاه الاستاذ درسا عظيما مهما فى ضرورة احترام قوانين الدولة التى يحاول الانسان على مر السنين الهروب منها وعدم احترامها ، مع انها وضعت أساسا لمصلحته قبل كل شئ ..

مرت الايام ، وانقضت الفترة التى يحرم فيها القتل والاعدام وجاء اليوم الموعود الذى ينفذ فيه حكم الاعدام على سقراط ، يوم يذكره جيدا الفلاسفة

على مر التاريخ على الرغم من مرور مئات وآلاف السنين ، انه اليوم الذى حاول فيه النفعيون والأشرار اغتيال الفلسفة ، ولكنهم فشلوا وأصبح هذا اليوم هو مولد الفكر الفلسفى عن طريق استشهاد أبى الفلسفة سقراط فداء مبادئه ، ولم يكن الرجل بخائف أو مرتعب من الموت ، وانما التلاميذ هم الذين كانوا يعانون من القلق والخوف والرهبة ، ولعلم سقراط بضعف النساء أمام الموت ، وسرعة انهيارهن وكثرة نحيبهن ، أمر زوجته بالرحيل وأبقى معه تلاميذه القادرين على الاحتمال ، ثم تركهم ليأخذ حماما ، وعاد ليجلس معهم ، وطلب كأس السم ليتناوله ، فاعترض التلاميذ ، وقال افريطون لمعلمه .. ان الشمس ما زالت مشرقة تلف الكون ، وتغطى الجبال وتشع بالضياء ، فلماذا تتعجل الموت وأمامك فسحة من الوقت ؟؟ ان بعض المحكوم عليهم ينفذون الحكم فى ساعة متأخرة من الليل بعد العشاء واحتساء الخمر والاستمتاع بنسائهم ، فلماذا العجلة؟؟ واجاب سقراط على تلميذه المحب .. « لا اظن ياافريطون اننى افيد شيئا اذا ما تأخرت قليلا فى تناول الكأس وكل ما هنالك اننى اصبح موضع سخرية فى نظر نفسى لمحاولة إطالة حياة ضاعت ولم يبق منها شئ .. ، وجاء الحارس بكأس السم – يقال إن هذا السم كان يستخرج من نبات الشوكران – وقدمها لسقراط فسأله المعلم عن طريقة تناولها وشرح له الحارس المهذب الرقيق وجوب تناول الكأس أولا ثم المشى بعدها فى الحجرة حتى يشعر بثقل فى قدميه ، وبعدها ينام على ظهره حتى ينتشر السم فى كل أجزاء جسمه ، وفى شجاعة واقدام تناول سقراط الكأس مرة واحدة ، ونفذ تعليمات حارسه ، وقبل أن يغفو غفوة الموت تعالى صراخ وبكاء التلاميذ حزنا على استاذهم الحكيم ، فتحامل على نفسه وهو يعانى من اللحظات الاخيرة للرحيل وقال لهم ..

« .. ماهذا الصخب والعبث الغريب ؟ لقد صرفت النساء حتى اتجنب هذا المنظر . ارجوكم الهدوء لأموت فى سلام .. »

نام سقراط على السرير بعد ذلك واهتز هزة عنيفة اسلم بعدها الروح وتحجرت عيناه ، ورحل سقراط من عالمنا وحوله تلاميذه ، فى فبراير أو مارس سنة ٣٩٩ قبل الميلاد ، وبرحيله انتهت حياة انسان فاضل ، عاش يبحث عن الفضيلة والحق والخير والجمال ، وكان ذبابة لاذعة ومولّد العقول والافكار ، كما كان يلقب نفسه . وكان بيته مصنعا للأفكار ، كما وصفه ارستوفان ، وبرحيله يسدل الستار عن أقوى مسرحية مأسوية « تراجيدية » واقعية فى تاريخ الانسانية القديم .

افاقت اثينا بعد جريمتها ، وشعرت بمدى الاثم الذى ارتكبته باعدام أحكم رجل عرفه التاريخ ، ولكن ماذا يمكن ان تفعله ؟ هيهات لها ان تعيد الزمن الى الوراء لتتجنب ذلك الاثم الكبير الذى وقعت فيه ، وهذه الجريمة البشعة التى ارتكبتها ، لقد انتهى كل شئ ، واعلنت اثينا الحداد العام فى البلاد ، كما بحثت عن خصوم سقراط لتعاقبهم ، واقامت تماثيل له فى كل مكان ، وعملت على كتابة تاريخ حياته وفكره .

من العجيب أن سقراط لم يترك لنا كتابا واحدا عن حياته او عن فلسفته ومبادئه وانما كل ما نعرفه عنه جاءنا من كتابات تلاميذه ومريديه ، مثل محاورات افلاطون ، ومذكرات كسانوفون ، وكتابات ارسطو ، ومع ذلك فان محاورات افلاطون وكتاباته عن استاذه سقراط تعتبر مرجعا اساسيا لحياته وفكره . فقد كان افلاطون - كما يقول تيلور- خليفة سقراط الحقيقى الاوحد ..

حدث لمدرسة سقراط من بعده كما يحدث عادة لكبار الزعماء وقادة الفكر بعد موتهم ، اختلف تلاميذه فى تفسير فلسفته ، ؟؟ ونشأت مذاهب سقراطية كثيرة تباينت آراؤها ، واختلفت أفكارها ، وعانت من المبالغة حتى وقعت فى المحظور وابتعدت عن آراء المعلم الكبير ، ووصلت بها الحال إلى المناداة بعكس ما يؤمن وينادى به من آراء .

وكما سبق القول فان افلاطون يعتبر التلميذ المجد فى مدرسة سقراط والخليفة الذى لا ينافسه أحد ، ومن ثم حافظت مدرسته على آراء سقراط مع شئ من التطور المنطقى ، اتفق افلاطون مع استاذه على كراهيتهما للسياسة ومهاجمتهما للسوفسطائيين ، وايمانهما بسذاجة الديانة الموروثة ، وبعد موت المعلم غضب افلاطون من اثينا التى أعدمت الفلسفة فى شخص سقراط وهاجر الى مدينة « ميجار » ثم زار آسيا الصغرى ومصر وبرقة وعاد بعد ذلك إلى اثينا ثانية وانشأ « الاكاديمية » التى علم فيها تلاميذه آراءه وفلسفته وأطلق عليها اسم اكاديمية نسبة الى البطل اكاديموس ، وما زالت الجامعات والمعاهد العليا فى العالم تطلق هذا الاسم على الدراسات العلمية والابحاث القيمة فتقول ، هذه دراسة اكاديمية ، والواقع ان افلاطون هو الذى رسم لنا شخصية سقراط الرائعة ، وجعلنا نعجب به كرجل آمن بمبادئه واستشهد فداءها .

ومن المشاكل التى حيرت المؤرخين والفلاسفة مشكلة آراء سقراط وآراء تلميذه افلاطون ، كيف نفصل بينها ونعرف خصائص كل منها ؟؟ يقول « امرسن » ان سقراط وافلاطون يكونان نجما مزدوجا يستحيل على اقوى الآلات شطره شطرا كاملا ، ويرى (تيلور) ان الآراء التى ذكرها افلاطون فى محاوراته المختلفة ونسبها الى سقراط هى فعلا آراء سقراط ، ويردد البعض أن آراء افلاطون بعضها سقراطى وبعضها الآخر أفلاطونى ، وعلى أية حال فاننا لا نستطيع الفصل بين الأستاذ والتلميذ ، فقد عرف التلميذ أستاذه وهو فى سن العشرين ربيعا ، وظل ينهل من بحر علمه وحكمته مدة تسع سنوات ، كانت علاقتهما خلالها وثيقة ، وهى علاقة صداقة حب وفكر واعجاب ، ومع ذلك فقد كان افلاطون بجانب حبه للفلسفة أديبا وشاعرا ، وكتب لنا تصوره للجمهورية الفاضلة ، بعد أن شعر بفساد الديمقراطية التى أدت إلى اعدام أستاذه سقراط دون وجه حق ، وجعل الحاكم فى هذه الجمهورية هو الفيلسوف الذى يصل إلى أعلى مراتب الفكر والحكمة ، وذلك حتى يأمن عبث غير الحكماء ، وقدم لنا أفلاطون أيضا نظرية المثل ، وكانت آراؤه أخلاقية مثل أستاذه ، ولم

يتخلّ عن المناداة بالخير والفضيلة ، وبعد افلاطون جاء أرسطو صاحب مدرسة « المشائين » وصاحب نظرية الوسط الذهبى ، وأرسطو هو امتداد لاستاذه افلاطون ، فكان تلميذه المجتهد فى الاكاديمية ، حتى قال عنه افلاطون ذات يوم انه عقل الاكاديمية ، وبقية التلاميذ جسمها ، وطور أرسطو آراء أستاذه واختلف معه فى بعضها ، فقد نادى بالديموقراطية نظاما للحكم بعد أن هاجمها افلاطون ، وهاجم رأى استاذه فى الشيوعية وقال عنها .. الشيوعية تقضى على التبعية الشخصية فالذى يمتلكه كل الناس لايسهر عليه واحد من الناس . ومع هذا الاختلاف فى الرأى نجد أن أرسطو اتفق مع استاذه افلاطون ، وأستاذ أستاذه سقراط ، فى المناداة بالأخلاق والفضيلة والخير ..

★ « اما المدارس التى نشأت بعد موت سقراط وانحرفت بآرائها عنهما مدرستان : المدرسة الكلبية ، والمدرسة الفوربنائية ، وقد اعتمدت المدرستان فى فكرهما على عبارة قالها سقراط هى : الفضيلة هى الطريق إلى السعادة والسعادة هى الباعث على الفضيلة ..»

« رأى أنتستين Antistene فى حياة سقراط مظهرا من مظاهر التقوى وضبط النفس ، والتمسك بالحق ، والبحث عن الفضيلة وأخذ من عبارته السابقة كلمة الفضيلة ، ومن ثم تزعم مدرسة الكلبية التى نادت بالزهد والتعلق بالفضيلة والبعد عن الرذيلة ، والتجرد من اللذات ، وبالغ فى ذلك حتى قال .. إنى أفضل أن أصاب بالجنون على أن أشعر باللذة .. وهكذا امعن تلاميذه ومريدوه فى الزهد والبعد عن متع الحياة وكراهية الملكية الشخصية ، والايمان بأن المرض والموت والفقر ليست شرا ، بل ان الانتحار لاثبات عدم اكتراث الانسان بالحياة يعد مشروعا ! وجاء بعد أنتستين تلميذه ديوجين الذى جعل الكلب نموذجا يحتذى به فى حياته الزاهدة ، وقد اطلق على هذا المذهب لقب الكلبية نسبة الى المكان الذى كانت المدرسة تعقد فيه اجتماعاتها ..

ولاشك ان هذا المذهب يغالى فى مبادئه ويقف ضد الطبيعة البشرية وضد

حب الانسان للحياة ، ثم ابداعه وفلسفته فى كيف يحياها ، ومن هنا احتقر افلاطون زعيم هذه المدرسة (انتستين) . وكذلك عبر الفيلسوف « برتراند رسل » عن بعد هذه المدرسة عن الواقع فقال : ان نزعتهم لا تلائم انسانا طموحا جياشا بالحيوية ، لكنها ترضى الذين نزلت بهم المحن وحطمت نفوسهم ، وهى لا تشجع الانسان على الابداع الفنى والعلمى أو أى وجه من وجوه النشاط النافع وذلك لأنها تحتقر الحياة ..

والمدرسة الثانية هى على النقيض من المدرسة الاولى ، فقد اخذت من عبارة سقراط كلمة « السعادة » وفهمتها بطريقتها الخاصة ونادى (اوستيوس) زعيم هذه المدرسة الفوريناثية ، بان اللذة هى غاية الحياة وهى الخير الحقيقى لانها نداء الطبيعة ، ومن ثم انكب اتباع هذه المدرسة على اللذات والشهوات يغترفون منها بعمق ويبدو أنهم تخبطوا فى رأيهم أو شعروا بمدى مغالاتهم حتى قالوا ... ان الحكيم هو الذى يتروى فى طلب لذاته ويسيطر على شهواته ..

هكذا انحرفت المدرستان ، وتوهم مفكروها انهم يخلدون آراء استاذهم ، ولكن ما أبعد هذه الآراء عن حكمة وفلسفة أبى الفلسفة سقراط.. فقد كان معتدلا بسيطا ، ينادى بالفضيلة لكنه يتمتع بحياته يشرب الخمر لكنه لا يفقد وعيه ، وفى هذا يحكي لنا افلاطون كيف اشترك استاذه فى احدى الحفلات الموسيقية ، وظل يشرب مع اصدقائه حتى الصباح ، وعند الفجر كان الحاضرون جميعا قد وصلوا الى حالة اللاوعى ، وجلسوا تحت المائدة ، وعندما رأى سقراط هذا تركهم وهو فى كامل وعيه . لم يناد سقراط بالتقشف والزهد البالغ ، كما انه لم ينكب على اللذات والشهوات ، وانما كان معتدلا غاية الاعتدال ، وربما هو الذى علم حفيده فى التلمذة (ارسطو) ان الفضيلة وسط بين رذيلتين .

وعن سقراط نشأ علم الاخلاق ، وتفرعت المدارس المختلفة التى تناولنا بعضها ، ثم نشأت فلسفة الرواقية بعد المدرسة الكلبية تنادى بتعاليمها الزاهدة ،

ونشأت الفلسفة الابيقورية بعد المدرسة الفورينائية تؤمن باللذة والتجاوب مع نداء الطبيعة ، وتطور الفكر الانسانى الى الربع الاخير من القرن العشرين ولكنه أخذ بنفس مبادىء الفلسفة القديمة وان طور فى بعض مفاهيمها ..

ويظل سقراط على مر التاريخ والعصور والاجيال ، المعلم الكبير أبا الفلسفة ، الانسان الفاضل ، شهيد الفكر ، العبقرى الذى هزم اليأس ، وهزأ بالموت .

ليوناردو دافنشى

بين العلم والفن

العمل الفنى أو الأدبى يكون
ثمرة لانفعالات وجدانية
وخيالية للفنان أو الأديب ،
وهذه الانفعالات لا تظهر الا
مرة واحدة فقط.

« دافنشى »

الانسان يبغى دائما الكمال ، وللاسف لايصل اليه بل نادرا ما يكاد ، ولذلك نردد دائما حكمتنا المعروفة ، الكمال لله وحده ، ومن هنا كان احترام الانسانية للاشخاص القليلين الذين يقتربون من الكمال فى جوانب شتى من حياتهم ، ومن هؤلاء يذكر التاريخ اسم الفنان الايطالى المبدع ، والعالم الانسان « ليوناردو دافنشى » ابن عصر النهضة والذى ساهم فيه بقسط وافر كبير .

كانت البداية غير طبيعية ، وربما كان هذا عاملا من العوامل التى دفعت صاحبنا الى النجاح والاصرار عليه ، على الرغم من كل الصعوبات والاشواك التى كانت فى الطريق ، فقد ولد « ليوناردو » كابن غير شرعى للسير « بييرودى انطونيو » Ser Piero di Antonis والذى كان يعمل موثقا للعقود ، ولانه ابن غير شرعى فقد انتسب الى البلدة التى ولد بها فى الخامس عشر من شهر ابريل عام ١٤٥٢ م وهى بلدة فنشى(Vinci) بالقرب من فلورنسا ، وأصبح اسمه « ليوناردو دافنشى » ويقال إن أمه « كاتارينا Catarina » تزوجت رجل آخر غير أبيه ، فنشأ وتربى فى بيت أبيه ، ولم يكن لامه أى أثر فى حياته ومنذ نعومة اظفاره أبدى اهتماما بالرسم ، ولاحظ ابوه ذلك فاهتم به ، لا من أجل الفن الخالص بل من أجل الحصول على المال ، تماما كما فعل والد عبقرى الموسيقى الالمانى بيتهوفن بابنه ، كان ليوناردو يرسم لوحات جميلة لا تتناسب مع سنه مما شد انتباه أبيه ، ولم يهتم وهو فى المرحلة الابتدائية من التدريس بالرسم فقط بل اهتم بأشياء كثيرة متباينة ، تأمل الطبيعة بكل مظاهرها وجمالها وأخذ يسأل نفسه عن سبب كل ظاهرة ، كيف تطير الطيور ؟ كيف يتحرك جسم الانسان ؟ وما الفرق بين أجسام الحيوانات وجسم الانسان ؟

وحتى يجد اجابة لاسئلته قام باجراء تجارب غريبة عجيبة وهو ما زال فى سن الطفولة ، أخذ يجمع الحيوانات الميتة وبمدية خاصة يشرحها بدقة متناهية بحثا عن معرفة كل تكوينها ، وبعد التشريح ومشاهدة جسم الحيوان يترجم ما

شاهده بقلمه على الورق فيرسم – بدقة أيضا – جسم الحيوان بالتفصيل ، ولعل هذا هو الذى جعل العلماء ينسبون اليه علم التشريح بعد ذلك ، ومن الطريف أنه كان يشعر بالسعادة كلما وجد حيوانا ميتا لانه يجد الفرصة لمعرفة جديدة الى دائرة معلوماته ، وكان أبوه يعنفه على ذلك من كثرة الروائح الكريهة التى ملأ بها البيت .

يقول « فاسارى Vasari » مؤرخ حياة الفنانين المصورين الاشهر عن تعليم ليوناردو أيام طفولته :

« تقدم ليوناردو بسرعة فى علمى الحساب والعلوم حتى أنه كثيرا ما خلط بين المادة التى يتلقاها عن معلمه وبين الشكوك التى كانت تساور نفسه باستمرار ، وبين الاسئلة الصعبة التى اقترحها ، كما أنه بدأ يدرس الموسيقى واعتزم أن يتعلم العزف على الكمان ، ولما كان ذا خيال مرح أخذ يغنى بمصاحبة هذه الآلة مرتجلا الاشعار والموسيقى فى وقت واحد » .

هكذا كانت طفولته حبا للمعرفة ، وشغفا للبحث عن أسرار الكون ورغبة عميقة للوصول الى دقائق الحياة ، وحتى لا ينسى ما يطالعه فى الطبيعة ، كان ليوناردو لا يخرج من بيته الا ومعه ورقة وقلم يدون فيها ملاحظاته واستفساراته.

رأى والد ليوناردو أنه من الافضل الاهتمام بموهبة ابنه فى الرسم فاصطحبه سنه ١٤٦٩ الى مدينة فلورنسا موطن الفن والفنانين ، وقدمه الى الفنان المعروف وقتذاك « اندريادل فيروكيو » ليعلمه أصول وقواعد فن الرسم ، وكان من حسن حظ فناننا الذى يبلغ من العمر سبعة عشر ربيعا أن يتعرف ويدرس على يد الفنان الرقيق « فيروكيو » فقد كان انسانا محبا لتلاميذه ، ومشجعا لهم وكريما فى تعليمهم ، وسرعان ما أصبح الاستاذ صديقا لتلميذه ، وحمل له التلميذ مشاعر الحب والاحترام ، ويحكى لنا ليوناردو فى مذكراته كيف كان الاستاذ على قدر كبير من سعة الافق وعمق التفكير فيقول :

« صارحت أستاذى ، فيروكيو ، أن اهتمامى ليس مقصورا على دراسة فن الرسم وفن النحت فحسب ، بل اننى مولع بدراسات كثيرة أخرى فى الطب والتشريح بالذات والهندسة ، وعلم النفس والموسيقى ، فقال لى أستاذى : ان الثقافة تؤثر على الفنان تأثيرا عميقا ، فالرسام أو الموسيقى اذا اقتصر أحدهما على دراسة الرسم والموسيقى فقط ، وترك نفسه جاهلا فى علوم وفنون الحياة الاخرى ، كان انتاجه ضحلا وسطحيا وهزيلا ، أما الفنان المثقف فانه قادر على الابداع وابتكار ألوان من الآثار الفنية تنفذ الى اعماق نفوس الناس » .

شجع الاستاذ تلميذه على البحث عن المعرفة فى فروعها المختلفة وترك له مكتبته الخاصة يقرأ فيها ما شاء ، واحترم هوايته فى تشريح الطيور والحشرات ، بل كثيرا ما وقف بجانبه وهو يفحص ضفدعة يتأمل كيف يشرحها ويتفحصها دونما غضب أو تعنيف ، وفى نفس الوقت عرفه قواعد الرسم والمنظور ، وعلمه القوانين التى تسير عليها حركات التموجات وطبعتها على الضوء ، واستطاع « فيروكيو » فعلا أن يصقل موهبة تلميذه « ليوناردو » ويجعل منه أحد فنانى عصر النهضة القلائل ، واعترف التلميذ بفضل أستاذه ، وظل يحمل له الحب والود الكثير ، وأبسط مثل على ذلك هو اسهامه فى رسم بعض أجزاء من لوحات (فيروكيو) الرائعة ، مثل لوحة تعميد المسيح ، التى رسم فيها رأس الملاك فى أقصى اليسار ، ولعب بريشته فى خلفيتها ، فزادها جمالا وروعة ، ولم يشأ أن يبيح لاحد بهذا السر ، وترك أستاذه فيروكيو يستفيد أدبيا وماديا منها دون ذكر اسمه ، وقد كشف النقاد ذلك بعد موت ليوناردو دافنشى ، وذلك بمقارنة أعماله بأعمال أستاذه ومعرفة خصائص كل منهما . كذلك فقد حصل ليوناردو فى يونيو سنة ١٤٧٢ على شهادة رسمية تجيز له الاشتغال بفن الرسم ، وأصبح اسمه بذلك مسجلا فى دفاتر حسابات نقابة مصورى فلورنسا على أنه مصور مستقل ، ومع ذلك لم يترك أستاذه فيروكيو لمعرفته بحاجته اليه وظل يخدمه أكثر من أربع سنوات . ان هذا ان دل على شئ انما يدل على

مدى انسانية ليوناردو واخلاصه لاستاذه وحبه له ، وهذه ميزة من ميزات فناننا الكبير ، فقد كانت طباعه هادئة ، متواضع جدا ، غير مسرف ، لا يشرب الخمر ، ولا يلعب الميسر ، ولا ينكب على النساء ، يهتم بالجوهر ، ولا تهمه المظاهر الزائفة ، ولا يغالى فى ارتداء ملابسه ، وقد جمع بين كمال الاخلاق ، وجمال الخلقة ، فوجهه مضيء ، وملامحه واضحة وشعره ذهبي اللون منسدل فوق كتفه وكان قويا قوة تمكنه من ثنى حذاء الفرس ، وبقدر ما كان جميل الوجه ، كان جميل الصوت ، ولهذا لقب بلقب شاب الجمال الساحر والخطابة .

عندما بلغ ليوناردو الثلاثين من عمره ترك موطنه فلورنسا الذى عانى الكثير من التدهور تحت حكم « ميدتشى » واتجه الى مدينة (ميلانو) التى كانت تزدهر تحت حكم (لودوفيكو سفورزاLudovico Sforza) وهناك كتب الى هذا الحاكم طلبا يعرض فيه الخدمات التى يمكن أن يقدمها اليه ، لعله يجد له وظيفة أو عملا ، ويعتبر هذا الطلب وثيقة هامة تبين ما وصل اليه علم وفن واختراع ليوناردو دافنشي وهو ما زال فى شرخ شبابه ، يقول الفنان فى طلبه:

« .. بعد أن اطلعت على كافة التجارب التى أجراها أولئك الذين يبرزون كأساتذة فى فن اختراع آلات الحرب ، وجدت أن مخترعاتهم لا تختلف بأى حال عما هو شائع الاستعمال ، ولذلك فإننى التمس منكم موعدا كى أعرض على سعادتكم بعضا من امكاناتى :

اولا : أستطيع أن أشيد الكبارى الخفيفة القوية ، والتى يمكن حملها بسهولة تامة ، والتى بواسطتها يمكن تعقب العدو ودحره ، وكبارى أخرى أكثر صلابة تستطيع أن تقاوم النيران والهجوم ، ومع ذلك فمن السهل تحريكها من مكان لآخر ، كما أننى أستطيع أن أدمر ما يشيده الاعداء من كبارى .

ثانيا: وفى حالة الحصار أستطيع أن أمنع الماء عن الخنادق ، واصنع العوامات والسلالم المتسلقة وما شابه ذلك من المعدات .

ثالثا : أستطيع أيضا أن أصنع نوعا من المدافع الخفيفة التى يمكن نقلها بسهولة ، وتستطيع أن تقذف الهدف بوابل من الحجارة الصغيرة ويتصاعد منها الدخان بطريقة تفزع العدو مما يسبب له الخسارة ويشيع الفوضى بين صفوفه .

رابعا : إذا استحال قصف اى مكان بسبب ارتفاعه أو حصانته فان فى وسعى نسف أى حصن مالم يكن أساسه مشيدا بالحجارة .

خامسا : أستطيع أن احفر – دون أدنى ضجيج – إلى أى نقطة معينة ممرات تحت الارض ، مستقيمة أو متعرجة ، تمر إذا لزم الامر تحت الخنادق أو الانهار .

سادسا : أستطيع أن أصنع عربات مصفحة تحمل المدفعية ، بوسعها أن تخترق صفوف العدو الحصينة كى نفتح ثغرة آمنة للمشاة .

سابعا : واذا استلزم الامر فاننى أستطيع أن أصنع أنواعا من المدفعية بعيدة المدى والمدفعية الخفيفة ، بعضها للزينة وبعضها من النوع العملى ، وتختلف عن الانواع الشائعة .

ثامنا : وفى حالة تعذر استخدام المدافع فاننى أستطيع أن أنتج بدلا منها نوعا من النبال الكبيرة ، والآلات الحربية التى تتميز بدرجة عالية من الكفاءة ، مما هو غير شائع ، وباختصار فاننى أستطيع أن أوفر وسائل لا حصر لها للهجوم والدفاع حسب مقتضى الحال .

تاسعا : واذا جرت المعارك فى البحر فاننى أستطيع أن اصنع آلات كثيرة تفى تماما بأغراض الهجوم أو الدفاع ، وأيضا سفنا تقاوم نيران أقوى المدافع والبارود والاسلحة الاخرى .

عاشرا : اما فى السلم فاننى أستطيع ، على ما أعتقد ، أن أساهم فى بناء المبانى العامة والخاصة بطريقة لا تقل كمالا عن أى متخصص آخر ، كما استطيع توصيل المياه من مكان الى آخر .

واذا بدت هذه الاشياء التى ذكرتها مستحيلة أو غير عملية فاننى على استعداد أن اجربها بنفسى فى حدائقكم أو فى أى مكان يراه شخصكم المبجل .

امضاء

(ليوناردو دافنشى)

لم تكن شبه الجزيرة الايطالية موحدة كما هى الآن ، بل كانت مقسمة الى امارات واقطاعيات تنشب بينها الخلافات والحروب الدائمة ، وربما كان هذا سبب اهتمام ليوناردو دافنشى فى عرض مخترعاته وامكاناته الحربية على امير ميلانو ، لكن بعض المؤرخين يقولون إن الامير كان يعرف ليوناردو من شهرته التى لفت البلاد ، وأعجبه فيه بجانب عبقريته فى الرسم والاختراع براعته فى اللعب على القيثارة ، مما دعاه الى استضافته فى قصره فترة طويلة من حياته بلغت سبعة عشر عاما .

قضى ليوناردو السنوات ما بين سنه ١٤٨٢ الى سنه ١٤٩٩ فى قصر (لودوفيكو سفورزا) أمير ميلانو وتعتبر هذه السنوات فترة نضوج الموهبة وتعبير العبقرية عن ذاتها فى الاعمال الكثيرة التى أخرجها خلالها ، فقد وجد الفنان الاستقرار الذى ينشده والذى شجعه على الانتاج والعمل المتواصل ، لانه يعشق العمل ويكره أوقات الفراغ ، ويستغرق دائما فى الرسم أو المطالعة أو اجراء تجاربه العلمية المختلفة ، وبعد ذلك لا ينام ليلا أكثر من خمس أو ست ساعات مهما بلغ به التعب والارهاق ، وقد كافأه الامير على ذلك بأن عينه أيضا أستاذاً لتنفيذ مناظر وزخارف البلاط ، ومشرفا على جميع الحفلات والولائم ، كل هذا بجانب ممارسته لفنه فى الرسم واختراعاته فى العلوم ، وكتاباته فى النقد والقصص والمقالات والاغنيات مما جعله ينجز ابان تلك الفترة أعمالا فنية تعتبر علامات واضحة فى تاريخ الفن العالمى منها ، رأس العذراء ، لوحة العذراء والطفل مع القديسة آن ، تمثال والد الامير سفورزا ،

لوحة العشاء الاخير ، ومجموعة تماثيل أخرى لتزيين ميادين مدينة ميلانو ما زالت تضفى عليها روعة وجمالا حتى الان .

يحتفظ متحف (متروبوليتان) للفن فى مدينة نيويورك بلوحة رأس العذراء ، وهى احدى رائعات ليوناردو التى رسمها بألوان الزيت ، ويقول النقاد ان الذى يتأملها يخيل اليه أن السيدة العذراء تتحدث اليه.

لم يهتم الفنانون ابان تلك الفترة بالرسم بألوان الطباشير الى أن جاء ليوناردو ورسم لوحة العذراء والطفل مع القديسة آن بالطباشير ، وبلغت روعتها وجمالها أن حاكاه الفنانون المعاصرون له ، وبدأوا يرسمون مثله بالطباشير ، ويظهر فى اللوحة السيد المسيح اثناء طفولته يداعب حملا صغيرا ، بينما تحنو عليه أمه السيدة مريم العذراء ، ثم تحنو على الأثنين القديسة آن ، وشد انتباه النقاد فى هذه اللوحة الدقة والروعة فى تدرجات الالوان ، والتمكن من استعمال واستخدام ألوان الطباشير ، وتوجد هذه اللوحة الان فى متحف اللوفر فى مدينة باريس .

اهتم ليوناردو بالاستجابة لطلب أمير ميلانو لعمل تمثال لوالده حتى يرد له الجميل ، وشاهد معظم اللوحات التى رسمت له ، وقرر أن يكون التمثال من البرونز ، ووافق الامير على طلبات الفنان ، وعلى الرغم من اهتمام ليوناردو بعمل التمثال وصنع نموذج له من مادة الصلصال القوية حتى يصب عليها بعد ذلك قالب البرونز ، الا أن التمثال لم يخرج الى الحياة .

اما رائعة ليوناردو وهى لوحة « العشاء الاخير » فلها حكاية أخرى ، فقد ذهب كبير رجال الدين فى مدينة « ميلانو » الى أشهر فنان وقتذاك وهو ليوناردو يرجوه الموافقة على رسم لوحة « العشاء الاخير » على جدار حجرة الطعام فى اكبر دير فى المدينة وهو دير (القديسة ماريا ديلا جرازيا) ووافق الفنان على الرغم من صعوبة الموضوع ، ذلك لان السيد المسيح اجتمع على هذه المائدة مع تلاميذه الاثنى عشر وأثناء تناولهم الطعام قال لهم إن واحداً منهم

سيخونه ويسلمه الى اليهود حتى يحاكموه ويعذبوه ويصلبوه ، وكان هذا الخائن هو يهوذا الاسخريوطى وبعد هذا التصريح اختلجت مشاعر الشك والحيرة والثقة والدهشة التلاميذ وكان على الفنان أن يصور ويعبر عن هذه المشاعر الانسانية فى لوحته ، وقد استطاع فعلا أن ينجح فى ذلك ويتفوق على زملائه الفنانين الذين رسموا نفس اللوحة ، وأصبحت لوحته أشهر لوحة للعشاء الاخير ، وأطلق عليها النقاد أول عمل رائع للنهضة الكاملة ، وعمل ليوناردو على أن تتجه الخطوط الرئيسية فى اللوحة مشيرة الى وجه السيد المسيح ، الذى اتخذ صورة دائرة مشعة فى الوسط وعلى جانبيه وقف التلاميذ فى مجموعات أشبه بأنصاف دوائر أو موجات متتالية تردد وقع الصدمة بحيث تبدو على قمتها فى الوجوه القريبة ثم تخف تدريجيا حتى تكاد تنعدم عند الطرفين ، وقد بلغ الفنان حد الاعجاز فى جمعه بين الظل والضوء فى تدرج هادىء حتى ليشعر الانسان أن دخانا ساحرا ينبعث من اللوحة ، وقد تسرب التلف الى بعض أجزاء اللوحة العظيمة نتيجة مزج ليوناردو الالوان الزيتية بالورنيش اعتقادا منه بأن هذا المزج ينتج عنه ألوان جديدة مبتكرة ، وقد ساعدت الرطوبة على هذا التلف ، وبالرغم من ذلك فان اللوحة تعتبر أبدع واروع ما رسمه فنان للعشاء الاخير ، وقد طلب من ليوناردو اصلاح التلف والفساد الذى أصاب لوحته ، أو أن يعيد رسم اللوحة كلها مرة ثانية ، فرفض رفضا تاما قائلا :

« ان العمل الفنى أو الادبى يكون ثمرة لانفعالات وجدانية وخيالية للفنان أو الاديب ، وهذه الانفعالات لا تظهر صادقة الا مرة واحدة فقط ، وخير لى ألف مرة أن ارسم لوحة أخرى عن موضوع يختلف تماما عن موضوع « العشاء الاخير » ، من أن ارسم من جديد لوحة تدور حول نفس الموضوع الذى استنفد منى قدرا كبيرا من طاقاتى الذهنية والخيالية والوجدانية » .

وقد أبدى لويس الثانى عشر الذى قام بحملة ظافرة على ميلانو اعجابه الشديد بلوحة العشاء الاخير هذه ، وأخذ يتأملها فى اعجاب وانبهار ، بل سأل من حوله عما اذا كان يمكن فصل الحائط الذى عليه اللوحة عن بقية المبنى

سليما أم لا ؟ اذ كان ينوى نقل هذه اللوحة معه الى فرنسا .

وفى شهر يوليو عام ١٩٨٠ بدأت وزارة التراث الثقافى بايطاليا حملة لجمع الاموال والخبرة اللازمة لاجراء عملية كاملة لاعادة لوحة العشاء الاخير ، رائعة ليوناردو دافنشى ، الى حالتها الاصلية ، وقد قدم عدد كبير من المواطنين الايطاليين تبرعات كثيرة من أجل لوحة الفنان الكبير ، لكن السؤال هو ، هل يستطيع فنان أو مجموعة من الفنانين اعادة اللوحة الى حالتها الاصلية بعد ان رفض صاحبها ومبدعها ترميمها او اعادة رسمها من جديد ؟ نرجو ذلك.

لم يكتف ليوناردو - كما ذكرنا - بممارسة هوايته فى الرسم ، وانما انكب على الدراسة والبحث فى مختلف انواع المعرفة ، وترك ابان تلك الفترة الذهبية من عمره بحوثا ودراسات فى أصول وقواعد فن الرسم ، وطريقة استخدام ألوان الزيت والطباشير ، وفن توزيع الأضواء والظلال ، كما ترك فى مذكراته بحوثا علمية مفيدة عن طبيعة الطيور والصخور والنباتات والحيوانات واهتم اهتماما خاصا بالتشريح ، وإذا كان قد مارس هواية التشريح هذه منذ نعومة أظافره مع القطط والكلاب والضفادع فانه مارسها فى كبره مع جثث الانسان بغية البحث والمعرفة ، ولم يكن من السهل أن يأتى بجثث ليشرحها ، ولكنه كان يتحايل على حراس القبور من أجل اقتناء جثة ، وبلغ شغفه لمعرفة أعضاء جسم الانسان الداخلية إلى تشريح جثة حديثة الوفاة واخرى قديمة نسبيا لمعرفة أى أعضاء الجسم تتلف بسرعة والاخرى التى تعيش فترة ، ولذلك كانت دراساته فى هذا المجال رائدة ومفيدة خاصة للمتخصصين فى الطب فيما بعد .

نعود الى أهم لوحات ليوناردو التى تحدثنا عن بعضها ، فهناك لوحة رائعة باسم « سجود المجوس » أبدعها عام ١٤٨١ قبل سفره الى ميلانو ، وهى تمثل مدرسة جديدة فى الفن كانت غريبة على فن القرن الخامس عشر ، اذ أنها تمثل التعبير الدرامى الغامض الحافل بالاسرار واللوحة قاتمة ، وتكاد أن تكون من لون واحد ، وتبدو الشخصيات فيها كالاشباح ، ولكنك تحس احساسا قويا

بالحركة الدرامية تخفق فى جوانبها وعلى الرغم من أن موضوع اللوحة الظاهر هو العذراء وطفلها يسوع وحولهما يسجد المجوس راكعين خاشعين تمجيدا لمعجزة السماء ، الا ان مضمون اللوحة الحقيقى يتضح جليا فى المعارك الدائرة فى أعماق اللوحة ، وفى الوجوه القلقة الهالعة التى لا تكاد تستبين وسط الظلال المحيطة بالشخصيات الرئيسية فى اللوحة ، فكأننا بصدد رؤية رهيبة نلمح فيها جموعاً من البشر تضطرب فى الظلام ومن خلفها اطلال قصر تحف به جموع أخرى بعضها على صهوة حصان ، ومن وراء هذه الاطلال فرسان وسط الصخور يحاربون وحشا من وحوش الاساطير .

ولعل هذه ميزة انفرد بها ليوناردو دافنشى ، وأقصد بها التعبير الدرامى والحافل بالغموض والأسرار ، فقد اعتاد الفنانون السابقون له على الوضوح وتحديد صور الاجسام بخطوط واضحة صريحة وابراز معالمها بضوء مباشر ، فجاء هو ليضفى على لوحاته اللمسات الموحية والظلال الشفافة والاضواء الباهتة ، حتى يعبر عما تختلج به النف ، من أحاسيس متباينة وهذا سبب من أسباب روعة وعظمة لوحاته ، وربما يـجلى هذا اكثر فى رائعته التى لم نتحدث عنها بعد ، وهى لوحة الجيوكندا أو الموناليزا والتى أبدعها سنة ١٥٠٣ وقضى وقتا طويلا فى رسمها ، ولهذه اللوحة قصة يحسن أن نعرف تفاصيلها .

عندما ذاعت شهرة ليوناردو كرسام فنان بارع ، تكالب عليه أبناء الارستقراطية يطلبون منه عمل لوحات لهم يحتفظون ويتظاهرون بها ، لا من أجل الفن الخالص ولكن من أجل التفاخر والعظمة ، من هؤلاء دعاه أحدهم ويدعى « فرانسيسكو دى جيوكوندا » وكان رجلا غنيا متغطرسا ، وزوجا لفتاة جميلة صغيرة ، يبلغ عمرها بالنسبة لعمره أقل من النصف ، دعاه لعمل لوحة خاصة به ، فرسمها ليوناردو بسرعة وانبهر الرجل بجمال لوحته ، فطلب من الفنان رسم لوحة لزوجته « موناليزا دى جيكوندا » وكانت فتاة جميلة هادئة صابرة على معاملة زوجها الارستقراطى السىء الخلق ، وجلست الزوجة أمام الفنان ، وأخذ بدوره يتفحص وجهها الجميل ، ويتعمق فى ضحكتها

الشاحبة ، لقد كانت الزوجة الجميلة تعانى من أشياء كثيرة تثير الهموم والاوجاع ، فزوجها يعتقد أنه اشتراها بماله الوفير فعاملها معاملة الجوارى وكان محبا للنساء ، ولا يتورع فى أن يختلى بهن فى قصره أمام زوجته ، بل يقال إنه كان يطلب منها خدمتهن وكانت تستجيب لطلباته وأوامره لتحافظ على بيتها وتتألم فى أعماقها دون الافصاح لاحد ، .. جلست « موناليزا دى جيوكندا » أمام « ليوناردو دافنشى » ليرسمها دون أن تتكلم ، وحولها فرقة موسيقية تعزف لحنا فرحا سعيدا حتى تحافظ على ابتسامتها ، ويقال إن الزوج كان يجعل من افراد الفرقة الموسيقية عينا تراقب الزوجة والفنان أثناء عمل اللوحة ، وكانت ابتسامة صاحبتنا هادئة لكنها عجيبة شاحبة تعكس الاوجاع والالام فى أعماقها ، واكتشف الفنان من نظراته العميقة لعينى الفتاة الجميلة مدى الحزن والالم ، واخذ يعبر عن ذلك فى لوحته ، لكنه أحس بشعور فياض نحو صاحبة الصورة ، شعور يمزج بين الحب لها والشفقة على حالها واحترام وضعها الاجتماعى ، ولم يتحدث هو الاخر اليها ، واكتفى الاثنان بحديث العيون ، وما أجمله وأفصحه من حديث ، وكان حبا صامتا بلا أمل حبا جعل الفنان يطيل الجلسات حتى لعب الشك بنفس الزوج ، ولكن غروره جعله يخفى شعوره ، ومع ذلك طلب من الفنان السرعة فى انهاء اللوحة ، وبعد سبعة أشهر تقريبا من الجلسات الطويلة ، طلب الفنان ليوناردو من زوج صاحبة اللوحة الرائعة أن يأخذها معه فى البيت لينتهى من عمل اللمسات الاخيرة (الرتوش) ، ووافق الزوج ليتخلص من شكوكه وأوهامه ، وقرر الفنان ان يحتفظ بلوحته الرائعة معه طوال الحياة وحتى النفس الاخير ، ذكرى سيدة فاضلة أحبها واحترمها ، وعبرت عيناه لها بذلك ويبدو أنها ايضا احبته واحترمته ، واكتفيا بنظرات الحب ، ولم يشأ أحدهما أن يسبب للاخر مشكلة ، وهكذا كان حبا بلا أمل ، أو كما يقول بعض الكتاب حبا أفلاطونيا .

تعتبر لوحة « الموناليزا » أو « الجيوكندا » أروع أعمال دافنشى كما اتفق النقاد والمؤرخون ، فقد اكتشف الفنان مواطن الجمال فى الموناليزا ، وعرف بدقة

حسه معاناتها مع زوجها ، وعبر عن ذلك بريشته البارعة ، فأحسن التعبير ، ولا شك أن شعوره نحوها أضاف على لمساته لونا من الصدق والجمال ، ربما لا نلحظه فى لوحاته الاخرى ، فالانسان لا يستطيع التخلص من الحالة النفسية أثناء العمل ، خاصة اذا كان فنانا دقيق الحس ، مرهف الشعور ، وقد شبه النقاد الانجليز نظرة « الموناليزا » بنظرة أبو الهول من حيث ما يبدو من خلالها من تهكم واستهتار بالحياة ، وما تنطوى عليه من مآسى لا أول لها ولا آخر ، ونتيجة لروعة اللوحة وأهميتها فى تاريخ الفن رفضت شركات التأمين المغامرة بتأمين حياتها ، لان ثمنها لا يقدر بمال ، وهى موجودة الان فى متحف « اللوفر » فى باريس ، ويعتبرها المتحف من أثمن مقتنياته وأهمها ، وفى استفتاء أخير لمجلة فرنسية فازت هذه اللوحة بلقب أكمل لوحة فنية على الرغم من وجود لوحات أخرى عالمية كلاسيكية وحديثة فى الاستفتاء ، وقال أحد الفنانين التشكيليين شارحا سبب اختياره لهذه اللوحة بالذات كأكمل وأجمل لوحة على مر العصور ..... « أحس أنم امرأة كاملة ... ولوحة كاملة .. ولكن الاهم من ذلك أسمعها تحدثنى ... »

لم تكتف عبقرية ليوناردو بالاختراعات العلمية ، والابداعات الفنية ، بل جرب حظه أيضا فى الادب ، وكتب مجموعة من القصص القصيرة اهتم فيها بالمعنى والهدف الانسانى اكثر من اهتمامه بالاسلوب وأصول فن كتابة القصة ، واشتهر دافنشى بأسلوبه الموجز وكتابته الغريبة المعكوسة التى تبدأ من اليمين الى الشمال ، ومن هذه القصص نذكر قصتين الاولى بعنوان الذئب:

ذات مساء هبط الذئب من الغابة فى يقظة وحذر وراء رائحة قطيع يبحث عن مكانه ، بخطوات بطيئة ، وحذر شديد ، واقترب من مكان الحظيرة المليئة بالنعاج ، فزادت فرحته ، وسال لعابه لهذه الوليمة الدسمة ، وأخذ يتحسس المكان ويخطو الهوينى فى هدوء ، حتى لا يوقظ فريسته ، ومع حرصه الشديد الا أنه وضع قدمه فوق لوح من الخشب ، فأحدث صوتا مطقطقا وحزن

الذئب لذلك وعاقب نفسه بأن رفع قدمه التى دفعته للخطأ وقضمها قضمة أدمتها .

اما القصة الثانية فهى قصة الماء :

رغبت المياه يوما فى أن تتخلص من وجودها فى البحر وتصعد الى السماء ، وحتى يتم لها هذا توددت الى عنصر النار حتى تساعدها على ذلك ووافقت النار وساعدتها ، فأصبحت بفضل حرارتها اكثر خفة من الهواء وتحولت الى بخار دقيق سرعان ما ارتفع الى السماء عاليا حتى طبقات الهواء الاكثر برودة ، و لم تستطع النار مساعدة المياه اكثر من ذلك وأصبحت قطرات الماء اكثر ثقلا من الهواء ثم سقطت الى أسفل فى صورة مطر ، بل أنها لم تسقط وانما اندفعت هاوية الى الأرض ، لقد صعدت الى فوق وهى مليئة بالفخر والاعتزاز ، ولكنها فى النهاية اندفعت هاوية الى الارض دون اتزان وامتصتها الأرض الجافة الجدباء ... وظلت وقتا طويلا حبيسة الارض ، وكفرت عن ذنبها بندم طويل .

وغير هذه القصص كتب ليوناردو دافنشى قصص أخرى تحت عنوان مجرى الماء ، البخيل ، الشعلات ، وغيرها . والملاحظ أن قصصه القصيرة ذات هدف انسانى واضح ، وهى أشبه ما تكون بموضوعات ومقالات المطالعة ، أكثر منها قصصا قصيرة .

وهكذا كان ليوناردو دافنشى مزيجا من العالم والفنان والاديب ، كان عالما فى الكيمياء والطبيعة والميكانيكا والهندسة والطب والتشريح والنبات والطيران ، وفنانا فى الموسيقى وعلم الاصوات والرسم ، ومن الصعب الفصل بين علمه وفنه ، فقد كان الرسم بالنسبة اليه مثلا طريقة للبحث عن تكوين هذا العالم وتنبأ بالكثير من الاكتشافات والاختراعات التى تمت بعد موته ، مثل نظرية « دارون » الكواكب السيارة حول الشمس ، ونظرية « نيوتن » فى الجاذبية ونظرية « وليم هارفى » الذى اكتشف الدورة الدموية للانسان ، كما صمم

« براشوت » وطائرة هليكوبتر ، وتنبأ باستخدام الدبابة والغواصة وغير ذلك . ويقول المؤرخون إنه لو نشرت مذكراته عقب موته مباشرة لوفر على العلماء قرونا من البحث والعمل والتجارب ، لكن مذكراته – للاسف – أهملت حتى القرن التاسع عشر .

وفى اواخر أيام ليوناردو اهتم به الملك « فرانسوا الاول » الذى حكم ميلانو ، اهتماما كبيرا ، فقد كان محبا للفنون والآداب ومشجعا للفنانين والموهوبين والادباء ، واتخذ منه صديقا شخصيا وأعد له قصرا أنيقا يطل على نهر « اللوار » ليعيش فيه ويمارس كل مواهبه الفنية والعملية ، ولكن الفنان لم يعمر طويلا فى هذا القصر ليتمتع بكل الامكانيات التى هيأها له صديقه الملك فرانسوا الاول ، فقد كان فى خريف العمر ، وأصيب بأمراض كثيرة نتيجة شدة البرودة ، أدت الى تجمد ذراعه اليمنى وشللها ، ثم امتد الشلل الى كل جانبه الايمن وفى اليوم الثانى من شهر مايو عام ١٥١٩ مات العالم الفنان الانسان ليوناردو دافنشى عن ٦٧ عاما قضاها فى البحث عن الجمال وخدمة الانسان وترك وراءه ثروة هائلة من اللوحات الفنية وخمسة آلاف صحيفة كتبها بخط يده فى بحوث علمية وفنية ، كما ترك كتابين ، الاول بعنوان علم التصوير والثانى عن الفن والجمال ، وقد قامت أخيرا إحدى دور النشر الكبرى فى ايطاليا بتسجيل أعماله وطبعها فى مجلد ضخم ، بلغت ثمن النسخة الواحدة منه أكثر من أربعمائة جنيه مصرى ، وجدير بالذكر أن المواطن المصرى (فرانسوا كحالة) والذى يعيش الان فى فلورنسا كان أحد الذين اهتموا بجمع وتسجيل تراث فناننا الكبير .

وعندى أن ليوناردو دافنشى هو أحد العباقرة الذين هزموا اليأس لانه أولا عرف حقيقة أصله كابن غير شرعى ، فلم يهتم بذلك ، ولم يتعقد نفسيا ، بل علم نفسه وتفوق على أقرانه ، واكتشف مواهبه ، وبرز فى اكثر من مجال ، وما زال التاريخ يحفظ اسمه كأحد نجوم الفن والعلم ، وواحد من الذين أقاموا عصر النهضة فى ايطاليا .

وثانيا لانه أصيب بالشلل فى يده اليمنى فلم يهدأ أو يركن للراحة بل تعلم كيف يرسم ويكتب بيده اليسرى حتى أجاد ، ورسم نفسه بهذه الطريقة وعاش راهبا لابحاثه العلمية ، ولوحاته الفنية ، والعجيب أنه حزن قبل وفاته لانه لم يستكمل بعض لوحاته التى يعتبرها النقاد العالميون الان أروع ما يمكن ان يصل اليه فنان ، وفى تواضع كبير قال إنه لم ينجز شيئا خلال حياته . انه الفنان الذى يبحث دائما عن الكمال ، ولا يقتنع بما يقدمه بحثا عن الجديد .

تولستوى

صديق الشعب ... ورجل المبادىء

كم هى شاقة الحياة كما احياها فى
الترف وضد ارادتى ...

تولستوى

★ الكاتب موقف ورأى ، والفرق بين الانسان العادى والكاتب العبقرى هو ان الاخير يتمسك برأيه للنهاية ليجعل منه مبدأ ، بل هو يضحى بكل ما يملك حتى حياته نفسها فداء رأيه ، وهذا ما فعله شيخ الادباء الروسى الكونت ليو تولستوى فاستحق ان يكرمه التاريخ ويذكره على مر السنين ، لا لكتاباته الرائعة ورواياته الانسانية الخالدة فحسب ، بل لموقفه الانسانى الصلب.

★ كانت البداية فى شهر اغسطس سنة ١٨٢٨ حيث رزق الكونت نيكولاى ايليتس تولستوى الذى يقطن فى ضيعته الخاصة فى جنوب مدينة موسكو بطفل جديد ، وشاء القدر أن يفقد هذا الطفل والدته وهو لم يتم بعد الثانية من عمره ، كذلك فقد أباه وهو فى التاسعة ، ومع ذلك عاش هذا الطفل طفولة سعيدة وصفها فى ثلاثيته الرائعة « الطفولة والصبا والشباب » بأنها سعيدة بفضل رعاية عماته ، وكان طبيعى أن يشارك تولستوى بيئته الارستقراطية حياتها الماجنة المستهترة فارتمى فى احضان النسوة يعب من الشهوة ، وقضى سنوات من شبابه بين لعب الميسر وشرب الخمر ، وفى سنة ١٨٤٤ التحق بجامعة كازان لدراسة اللغات الشرقية ولكنه تركها سنه ١٨٤٧ ليتفرغ لدراسة انفرادية خاصة به جادة ، وفى سنه ١٨٥١ التحق تولستوى بالجيش واشترك فى اخضاع ثوار جبال القوقاز ، وزار أوربا لاول مرة وهو فى التاسعة والعشرين من عمره ، ولم ترقه الحياة هناك ، وذكر ذلك فى مذكراته الخاصة ، هذه المذكرات التى تعود أن يدون فيها افكاره ومشروعاته وخططه منذ نعومة اظافره وتعد مرجعا هاما لكل دارس لحياته .

★ لم يكن ليوتولستوى مجرد شاب ينتمى الى الطبقة الارستقراطية ويعيش ويحيا حياتها الصاخبة وحسب ، بل كان فيلسوفا متأملا لما حوله ، ونظر لحياته متأملا كل أعماله ثم تأمل حياة الفلاح الصغير ، وقارن بين حياته السهلة العابثة وحياة الفلاح المفعمة بالفقر والجهل والحاجة ، ونظر الى السجون وما يرتكب فيها من فظائع ، والى سيبريا ومن يزج فيها من ابطال الفكر والحرية.

ويشعر بحنين وحب ومشاركة وجدانية للفلاح المضطهد ، والسجين المظلوم ، والفقير المحتاج ، والجاهل رغم أنفه ، وسأل نفسه :

* كيف استطيع أن اعيش بحيث أنقذ نفسى والناس ؟

* وبدأ تولستوى فى وضع فلسفة لحياته ، وانكب على الكتب والروايات يقرؤها فقرأ قصص .. بلزاك .. وزولا وديكنز واطلع على القرآن الكريم والانجيل المقدس ، وأعجب بفيلسوف فرنسا جان جاك روسو ومبادئه ، وذهب الى الفلاحين وارتدى ملابسهم البسيطة وحرث الارض معهم ، واشتغل بكلتا يديه كاسكاف ونجار ، وبدأ يبدع رواياته وكتبه ، واصبحت له رسالة فى الحياة بعد أن مر بفترة ندم كبيرة عن سنوات عمره التى ضاعت دون الاهتمام بالناس ، ولمجرد اشباع شهواته ورغباته ... وكتب يقول :

« ويل لى .. لقد سرقت ثروتى من عرق الفلاحين . استبحت أعراض نساء كثيرات . كذبت وسرقت وظلمت ، خنقت فى صدرى كل ما هو طيب وانحدرت الى أعماق الخطيئة .. »

* تمثلت فلسفة تولستوى فى عدم مقاومة الشر بالشر وضرورة التخلص من الطمع وحب الاستغلال والاتجاه الى البساطة ، والايمان بحق الانسان فى الحرية والعدالة والمساواة ، ونبذ الجهل والارهاب والاضطهاد والعنف وعدم الافراط فى الشهوات والرزائل ، وتعبيرا عن بساطته اخذ يصنع ملابسه واحذيته بنفسه كما فعل غاندى بعد ذلك ، وقد عبرت مؤلفاته العديدة عن هذه الفلسفة بوضوح .

* تزوج تولستوى فى سنه ١٨٦٢ وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره بينما كانت عروسه (صوفيا) فى الثانية عشرة ، وانجب ثلاثة عشر ابنا ، واهتمت زوجته به وبأبنائه وسهرت على راحتهم جميعا لكنها لم تستطع أن تواكب افكار زوجها الاديب الفيلسوف فانتهت حياتهم بخلاف حاد حول ثروته ، اذ كان يود أن

يكتبها للعامة ولكنها اعترضت بالطبع فنشأت مشاكل كثيرة بينهما تدخل فيها أبناؤهم مما سنوضحه بعد ذلك .

* بلغت مؤلفات ليوتولستوى حوالى المائة كتاب اهمها :
« الحرب والسلام » ..« أنا كارنينا »..« الطفولة والصبا والشباب » .. « موت ايفان اليتش » ..« كرويتسر سوناتا » .. « اعترافات » .. « البعث ».. « القوقاز » . « ما الفن » ؟ « عقيدتى » . « ماأومن به » . « لن استطيع أن اظل ساكنا » .« الحاج مراد » قصة ، ومن أعماله المسرحية « سطوة الظلام » ، « ثمار التنور » ، « الجنة الحية » .

* امتاز اسلوب تولستوى بالبساطة التى كان يؤمن بها ، واختيار الشخصيات المعبرة عن عامة الناس ، فهو مصور النفوس المتوسطة الشائعة الموجودة فى كل زمان ومكان ، ومن هنا عاش ادبه وسيعيش ما بقيت الحياة ، فأدبه هو أدب الحياة ، وفلسفته هى المثالية التى يبحث عنها الانسان منذ بدء الخليقة وحتى نهايتها .

* تعتبر رواية الحرب والسلام اعظم اعمال تولستوى وقد استغرق فى كتابتها خمس سنوات من سنة ١٨٦٤ الى ١٨٦٩ ، واختار وقائعها فيما بين سنتى ١٨٠٥ و ١٨٢٠ ، أما الحدث الرئيسى فيها فهو غزو جيوش نابليون لروسيا سنة ١٨١٢ والموقف البطولى للشعب الروسى فى مقاومته لهذا الغزو ... وربما كان ضمن اسباب اختياره لهذا الحادث بالذات هو اشتراك والده الكونت نيكولاى ايليتس تولستوى كمحارب ضد الغزو .... وتحوى رواية الحرب والسلام حوالى خمسمائة شخصية تتمثل فيها كل الفئات الاجتماعية فى المجتمع الروسى ابان تلك الفترة التاريخية من نابليون الى الفلاح « بلاتون كاراتاييف » والشخصيات مرسومة بدقة كبيرة وعناية فائقة .

فالفلاح مثلا يبشر ببساطة الحياة وبراءة الطبيعة مما يؤثر على التطور الروحانى لشخصية أخرى هى « بيير بيزوخوف » تتداخل مع أحداث الحرب وتتأثر

بها حياة شخصيات الرواية ومن أهمها :

« ناتاشا روستوفا » بطلة الرواية التى نراها فى البداية على هيئة فتاة فى ربيع عمرها مرحة تتمتع بقدر كبير من الذكاء ، ومن خلال احداث الحرب وتجربتها العاطفية مع الامير « اندرية بولكونسكى » التى تنتهى نهاية مأساوية تكبر وتصبح امرأة مختلفة بعد أن جربت الشقاء والتعاسة ، لكن تولستوى يعمد فى النهاية الى منحها زوجا سعيدا هو « بيير بيزوخوف » الذى سبق أن مر بتجربة زواج فاشلة ، والذى يقوم بمحاولة جريئة لاغتيال نابليون لكن الفرنسيين يلقون القبض عليه ويأخذونه اسيرا ، وعندما يتقهقرون نتيجة عجزهم عن اتمام الغزو فى خلال شتاء روسيا القارس القاسى ، يتمكن من الهرب مع فرقة قوقازية تهاجم الموقع الذى كان فيه وقتذاك ثم تأتيه أخبار سيئة عن وفاة زوجته وأحد اصدقائه المقربين اليه .... ويتسرب الحزن الى قلبه لكنه سرعان ما يشعر بنعمة الحياة فيقع فى حب « ناتاشا » ويتزوجها .

* كل هذه الشخصيات تنمو وتتخذ معالمها مع تطور الاحداث وتأثير الحرب على حياة كل منهما .. ناتاشا تمثل عند كاتبنا الطبيعة أو غريزة الحياة والبساطة التى هى السعادة الحقيقية ، وتمثل شخصية « بييربيزوخوف » النزعة الانسانية عند تولستوى ، فقد كان يعيش مسترشدا بالتعاليم البدائية البسيطة التى يتلقاها من الفلاح الطيب « كاراتاييف » ، هذه التعاليم تمثل فلسفة تولستوى نفسه فى الحياة وتتمثل فى أن الحياة يجب أن يمارسها الانسان بعواطفه وأن يتقبلها ببساطتها وطبيعتها ولا ان يعمل فيها فكره بما يتميز به من قصور والتواء فيؤدى بها الى التعقيد الذى لا ضرورة له .. أما شخصية البرنس « اندريه بولكونسكى » فيمثل الانسان الذى يجاهد لكى يعرف معنى وحقيقة الحياة لكنه يصل فى النهاية الى أن الموت هو النهاية الطبيعية لها .

* وقد لقيت رواية الحرب والسلام ، ملحمة تولستوى الخالدة ، نقدا من الدارسين بسبب التنوع الواسع النطاق فى الامور التى تتعرض لها مما يبعدها احيانا عن السياق القصصى ، فالمؤلف يتعرض لقضايا تاريخية واجتماعية وحربية

كثيرة ، ويسهب فى سرد المعارك والحديث عن آرائه وفلسفاته ونزعاته الشخصية ، ولكنه يمزج بين كل هذا مع احداث الرواية بمهارة وبراعة احتسبها معظم النقاد له واعتبروها اضافة لهذا العمل الادبى مما يزيد من قيمته .

* العمل الثانى المهم لتولستوى هو رواية « انا كارنينا » ويقال إن كاتبنا شاهد بنفسه امرأة تنتحر تحت عجلات قطار ودفعه هذا المشهد لكتابة هذه القصة العاطفية ، والاديب الحق يأخذ افكاره دائما من الواقع ومن احداث حياته اليومية ، ثم يضيف اليه من عبقريته ومن فلسفته وفكره ما يجعله عملا ادبيا متكاملا .

* وقصة انا كارنينا تتلخص فى اسرة تتكون من زوج بسيط هو « كونستانتين ليفن » وزوجة شابة هى « انا » وابنهما « سيرجى » ..

تعيش الاسرة البسيطة فى مزرعة هادئة حياة سعيدة لكنها رتيبة فما تفعله اليوم هو ما سوف تفعله غدا وهو ما فعلته البارحة وهكذا ، ويوم سافرت الزوجة الشابة بالقطار الى المدينة ، وفى القطار تعرفت على شاب وسيم يدعى « اليكسى فرونسكى » يعمل ضابطا بالجيش ، وفتحت الزوجة الشابة قلبها لهذا الشاب الوسيم ، وامتلأ بحبه مرة واحدة ، ووجدت فيه مخرجا من حياتها الرتيبة مع زوجها ، ونسيت مع حبها ابنها « سيرجى » فتركت بيتها وتبعت الضابط الوسيم ، وما هى الا ايام وشهور حتى شعر الشاب بأن حبيبته تعطله عن عمله ومستقبله فاتخذ القرار وهجرها ، ولحق بفرقته الذاهبة الى الحرب ، ولم تكد تعرف الخبر حتى جن جنونها وفقدت صوابها واندفعت للانتحار تحت عجلات القطار ، وهكذا حطم الحب حياة انا كارنينا وحول حياة الاسرة السعيدة الى التعاسة والضياع .

* اهتم تولستوى بعد ذلك فى كتاباته بالناحية الدينية والفلسفية ، فكتب عن الاناجيل الاربعة وهى اناجيل متى ، مرقس ، لوقا ، ويوحنا وترجمها الى اللغة الروسية ، وابرز الجانب الاخلاقى فى العقيدة المسيحية ، ووصل به الحال الى

وضع عقيدة دينية من صنعه هو ، قوامها المحبة والبساطة وأساسها الفكرى موعظة السيد المسيح على الجبل ، ومع ذلك فقد تحول عن الايمان الارثوذكسى وهاجم سلطان الحكومة والكنيسة ، فما كان من الكنيسة الا ان تصدر قرار حرمانه من عضويتها والانتماء لها ، وفى يوم ٢٤ فبراير عام ١٩٠١ ، نشرت كل صحف موسكو قرار حرمان تولستوى وفصله من الكنيسة ، وهذا نص القرار :

« طبيب جديد زائف يظهر فى أيامنا يدعى ليو تولستوى وهو اديب ذو شهرة عالمية ، روسى المولد ، ارثوذكسى ومتعلم ، لكن الكونت تولستوى منساق وراء غطرسة ذهنية تجرأ وثار ضد ربه والمسيح والتعاليم الالهية وانكر علانية وامام الناس الكنيسة الارثوذكسية التى أنشاته كأم وكرس نشاطه الادبى وموهبته التى حباه بها الرب لينشر فى الشعب مذاهب مناهضة للمسيح والكنيسة » .

★ الغريب أن قرار الكنيسة بحرمان تولستوى كان له صدى عكسى تماما ، فقد وقف العامة والاثرياء وكل الشعب بجانب الكاتب الكبير يؤيدونه ويشدون من ازره ، وانهالت عليه البرقيات والرسائل وباقات الزهر فى نفس الوقت الذى تزايد السخط على المجتمع عامة ورجال الكنيسة خاصة .

ولم تتأثر نفسية تولستوى بهذا الحدث بل ظل كعادته نشطا محبا للحياة عطوفا على الفقراء ، فقد طلب من زوجته إعلامه بمجئ أى انسان يطلب اى شئ منه ، وعندما سمعها تقول ان الشيخوخة مملة وانها ترغب فى الموت السريع نهرها قائلا :

« لا بل يجب أن نعيش .. الحياة فى غاية الجمال » وهكذا كان تولستوى انسانا نشطا رائعا محبا للحياة حتى وهو فى الثالثة والسبعين من عمره .

★ تشكل سنوات تولستوى الاخيرة من عمره مرحلة هامة فى تاريخ حياته ، ولعل هذا هو سبب اختيارى للكتابة عنه ضمن العباقرة الذين هزموا

اليأس ، فهو ككاتب عبقرى وأديب مفكر لم يهزمه اليأس ، فهناك كتاب وعباقرة وادباء كثيرون لم أتعرض لحياتهم لان فكرة اختيار الشخصية فى هذا الكتاب تبحث عن الشخصيات التى هزمت اليأس عن طريق التضحية بشئ هام فى حياتهم من اجل الجماهير ، أو الانتصار على عاهة كان من الممكن أن تجعل من صاحبها انسانا متسولا ، أو على الاقل انسانا عاديا يعيش فى ظل الحياة.. أو غير ذلك ... وصاحبنا تولستوى هزم اليأس عن طريق تطبيق مبادئه الانسانية السامية من اجل الناس وهى العدل ، السلام ، المساواة ، وقرر فى نهاية حياته أن يهب املاكه من اراضى وثروة وذهب للفلاحين الذين احبهم ، وهاجم الملكية المطلقة واحتقر الترف الذى يعيش فيه .

ولم ترض زوجته عن تصرفاته هذه ، فكيف يوزع ثروته واملاكه التى تعتبرها ملكها الخاص ، ونشأ نزاع كبير بينهما ، ويبدو أن لهذا النزاع جذورا قديمة ، لذلك يجدر بنا أن نعرض بشئ من التفصيل لعلاقة الزوجين ببعضهما ورأى كل منهما فى الاخر .

★ تقول صوفى تولستوى فى كتابها « اليوميات الخاصة » عن زوجها : « تولستوى رجل ذو ذكاء عظيم » .. « وموهبة ضخمة .. وخيال وحساسية ورقة غير عادية .. لكنه رجل بلا قلب ، بلا طيبة حقيقية .. طيب فى مبادئه لكنها ليست طيبة تلقائية... »

فياترى لماذا تتهم صوفى زوجها الاديب الكبير بأنه رجل بلا قلب ؟

★ الا انه اهتم بفكره وادبه ولم يهتم بهوايتها فى الكتابة والعزف الموسيقى ؟

★ الا انها كرست حياتها فى خدمته وابنائها منه وعددهم ثلاثة عشر ابنا ؟ اليس هذا واجبها ؟

★ ام لانه هاجمها فى مذكراته الخاصة واتهمها بالتفاهة ؟ فبينما هى تنظف حجرته عثرت مصادفة على جزء من مذكراته الخاصة ، ولم تستطع ان تمنع فضولها للتعرف على ما تحويه فقرأت كلمات ليتها لم تقرأها ، كانت هذه الكلمات هى رأى تولستوى فيها ، وكيف انها تافهة ، تتدخل فيما لا يعنيها ، وغضبت

وتسرب الحزن الى قلبها ، وشعرت أن هذه السنوات التى قضتها فى خدمته كزوج وكاتب كبير ما هى الا ضياع فى ضياع .. وجلست تكتب رسالة اليه تفضى فيها بمشاعرها وخلجاتها وقالت فى رسالتها .... :

« قلبى حزين منذ ايام .. ورغم هذا قررت الا احدثك خوفا من ازعاجك والعودة الى ماكنا عليه فى موسكو قبل وفاة ابننا فانتشكا .. غير اننى لا استطيع منع نفسى من ذكر ما يؤلمنى لاخر مرة ... لماذا تذكر اسمى مقترنا بكل هذا الشر فى مذكراتك ؟ لماذا تريد أن تديننى الاجيال المقبلة فتصفنى بالزوجة الطائشة .. السيئة .. والتى تتعس زوجها ؟ كان من الافضل ان تسبنى او تضربنى لما قد تراه عيبا فى بدلا مما تفعله .. وكنت قد وعدتنى بحذف الكلمات السيئة فى مذكراتك .. لكنك لم تنفذ ذلك .. هل تخاف أن يصبح مجدك بعد وفاتك اقل حجما ان لم تظهرنى فى صورة المستبدة وانت الشهيد ؟ .. اغفر لى ارتكبت دناءة بقراءة مذكراتك ... لكن القدر هو الذى ساقنى لهذا.... كنت انظف حجرتك فعثرت على مذكراتك و لم استطع منع نفسى عن معرفة ما بها ثم وقع بصرى على هذه الكلمات « .. صوفيا وصلت لتوها من موسكو .. حشرت نفسها فى حوارى مع كلارابول .. وقد اصبحت اكثر تفاهة بعد وفاة ابننا .. لابد أن اصبر حتى النهاية فساعدنى ياإلهى ... »

فعندما تنتهى سيردد كل فرد هذه التفاهة على طريقته ويضعون زوجتك فى الوحل لانك اردت هذا واثرت هذا الموقف بكلماتك .. هذا رغم اننى لم اعش الا من اجلك وابنائك .. لاننى احببتك اكثر من اى انسان آخر فاغرقت فى التفاهة التى تتحدث عنها فى مذكراتك الموجهة الى الاجيال المقبلة.. اما انا فسأموت بلا صفة سوى كونى زوجتك جسدا وروحا .. احاول أن ارتفع فوق الالم الذى يعتصرنى ، اتجه الى الله .. الى ضميرى .. واستسلم لأذى الانسان العزيز فان لم يكلفك الامر كثيرا فاشطب من مذكراتك كل هذا العداء تجاهى ... ليس بمقدورى مطالبتك بأن تحبنى .. لكن على الاقل ابعد اسمى ان استطعت فان لم تستطع فليسامحك الله ... اتألم وابكى عند كتابة

هذه الكلمات .. التى لن اتمكن من قولها لك .. وسامحنى ان استطعت التوقيع :
(صوفى تولستوى)

★ وفى موضع آخر من مذكراتها او « اليوميات الخاصة » تقول صوفى تولستوى « احب فى تولستوى كل الجانب الايجابى فى افكاره .. ولو كان الخلاف بيننا تاما ما كنا تحابينا .. لكننى لم استطع ابدا احتمال الجانب السلبى فى شخصيته ... »

★ وتذكر صوفى فى مذكراتها يوم ١٤ يناير سنه ١٩٠٥ وتكتب فيه :
« ذهبت صباح يوم اول يناير الى تولستوى مقبلة اياه ومتمنية له عاما سعيدا .. توقف عن كتابة مذكراته وحدق فى قائلا : « انا حزين من اجلك .. لانك لم تحقق رغبتك فى العزف على البيانو .. فسألته : ولم يحزنك هذا ؟ .. فقال اعرف أيضا انك تعيسة وأرثى لحالك ... ثم اجهش بالبكاء وقال انه يحبنى وانه سعيد جدا بقضاء حياته معى .. فأجهشت بالبكاء انا أيضا .. ورجوته أن يغفر لى طبيعتى المتقلبة ... »

★ والخلاف حتى هنا خلاف طبيعى بين اى زوجين فما بالك بين كاتب كبير وهب نفسه للناس جميعا وعاش ليكتب لهم وعلى حبهم وبين زوجة تريد ان يكون زوجها متفرغا لحبها ومسئولياتها .

★ وربما شغلت الحياة العامة تولستوى عن حياته الخاصة فهو يهتم بالانسان اينما كان .. يهتم بالسياسة والحرية وتحقيق العدالة الاجتماعية ، وفى هذا العام بالذات عام سنه ١٩٠٥ اعلن ثلثمائة وستون الف عامل فى بترسبورج الاضراب وتوجهوا بعريضة الى القيصر نيكولا الثانى يطلبون فيها تحديد السلطة المطلقة وارساء حكومة نيابية ووقف الحرب مع اليابان ، واعترضت قوات الشرطة المتظاهرين واطلقت عليهم النيران مما أدى الى مصرع ثلاثة الاف عامل واندلاع الثورة التى عرفت بثورة عام الف وتسعمائة وخمسة ، ولم يقف تولستوى من هذه الثورة موقف المتفرج وانما كتب مقالا تحت عنوان « الحركة الاجتماعية فى

روسيا » اعترض فيه على اساليب الحكومة القمعية وطالبها بضرورة وضع الدستور واقامة مجلس نيابى ... ووجد الثوار والشعب كله فى تولستوى السلوى والقائد والمثل الاعلى فالتفوا حوله وانهالوا عليه بالهدايا وعبارات التكريم بل ان ادباء انجلترا المشهورين وقتذاك .. برنارد شو .. توماس هاردى .. ويلز .. وغيرهم ارسلوا اليه مندوبا برسالة قالوا فيها : « ان الشجاعة والصدق اللذين بهما ترسى مثاليات جديدة ونبيلة للانسانية كلها قد جعلت العالم كله يحبك » .

★ يعتبر عام الف وتسعمائة وعشرة سنه ١٩١٠ عاما مهما فى تاريخ حياة تولستوى فهو العام الذى كتب فيه وصيته وحدث الخلاف الكبير مع زوجته صوفى على الارث ، وهو نفس العام الذى كتب فيه رسالة الوداع ورحل عن عالمنا فعلا .

★ فى بداية سنة ١٩١٠ عاد تشرتكوف تلميذ تولستوى المخلص اليه ، ومع عودته زادت المشاكل بين تولستوى وزوجته صوفيا ، فهى لا تقبله وتشعر أن حب الاستاذ لتلميذه يدفعه لتقبل نصائحه التى ينتج عنها قرارات غير مدروسة وليست فى صالحه ، وفعلا كان اول ما فعله تولستوى هو منح تلميذه مذكراته الخاصة ليحفظها عنده بعيدا عن زوجته حتى لا تقرأها ، وطبيعى أن تزداد صوفى غيظا من تسلط هذا التلميذ ، ثم يشجع تشرتكوف استاذه تولستوى على كتابة كل ممتلكاته للشعب من العامة والفلاحين .. وهذه بلا شك افكار تولستوى نفسه لكى يبقى دور التلميذ فى تشجيع استاذه على التنفيذ.

★ وتحاول صوفى ان تحافظ على علاقتها بزوجها من اجل بقاء بيتها ، فطلبت منه احضار مذكراته من عند تلميذه .. فرفض .. وفى مواجهة بين صوفى وتشرتكوف هاجمها واساء اليها امام جمع من الناس مما ترك اثرا سيئا فى نفسها.. واظلمت الدنيا فى عينيها وفكرت فى الانتحار لكن تولستوى طيب خاطرها وسلمها رسالة اليها كتب فيها :

★ .... لن يأخذ احد مذكراتى الخاصة الحالية لاننى سأحتفظ بها لدى ..سآخذ

مذكراتى القديمة من لدى تشرتكوف لاودعها فى احد البنوك ، اما اذا كان ما يضايقك هو بعض الفقرات التى كتبتها تحت وطأة الالم أو خلافات لحظية قد تعطى الفرصة للمؤرخين فيما بعد لتفسيرات مسيئة .. رغم أن بعض هذه العبارات ذات الانفعالات الوقتية سواء فى مذكراتى أو مذكراتك ليس باستطاعتها أن تتيح الحكم بعمق على علاقتنا الحقيقية .. فاذا كان هذا هو ما تخشينه فاننى سعيد لاقتناص هذة الفرصة لاحدد فى مذكراتى أو فى رسالة كتبتها بمطلق الحرية موقفى تجاهك وتقديرى لحياتك .. لقد احببتك وما زلت احبك دون ان تتمكن كل الاسباب المتعددة للفتور من أن تجمد هذا الحب .. ان اسباب الفتور تكمن فى المقام الاول فى انفصالى التدريجى عن اهتمامات الحياة المادية واحتقارى لهذه الاهتمامات .. بينما لم تقبلى أو تتمكنى من الانفصال عنها وقد حدث هذا نتيجة للقواعد الروحية التى اوصلتنى الى بعض الافكار وهو أمر طبيعى لا القى فيه بأى لوم عليك .. اغفرى لى ان كان ما سأقوله الان سيغضبك لكن ما يحدث بيننا من الاهمية بحيث يجب الا نخشى من ذكر الحقيقة كاملة عنه .. اما السبب الثانى فيعود الى ان طبعك فى السنوات الاخيرة يزداد استبدادا وعنفا وتحاملا والتعبير عن هذة الصفات فى شخصيتك قد اسهم فى برود المشاعر بل والتعبير عنها ايضا .. اما السبب الثالث وهو السبب الاساسى والرئيسى الذى لا تقع مسئوليته على اى منا فيكمن فى اختلافنا التام فى فهم معنى وهدف الحياة .. وثبت اختلاف كل منا فى اسلوب مواجهة الوجود طوال مسيرة حياتنا ومواقفنا تجاه البشر ووسائل الوجود فانا اعتبر الملكية اثما بينما تعدينها شرطا اساسيا للوجود وحتى لا أنفصل عنك فقد اذعنت طوال حياتنا لاشكال كانت عظيمة الالم لى ... بينما رأيت فيها تنازلا عن افكارك .. وهكذا ازداد الخلاف بيننا ، اما عن تقديرى لحياتك معى فهو الاتى: لقد كنت عندما تزوجتك رجلا فاسقا تعدى بداية الشباب بينما كنت انت فى الثامنة عشرة نقية ، طيبة وحكيمة .. ورغم ماضى الملئ بالرذيلة والمجون فقد عشت قرابة خمسين عاما معى تحبيننى وتتحملين معى عبء الحياة الشاقة .. تلدين

ابناءنا وتطعيمنهم وتربينهم وتسهرين علينا جميعا دون الاذعان للاغراءات التى كانت بامكانها بسهولة اجتذاب امرأة مثلك يافعة وجميلة ونقية ... عشت دون أن اوجه اليك لوما واحدا ... لانني لم استطع لومك على عدم اتباعك للحركة الاستثنائية لروحى كما لا اعاتبك لان الحياة الروحية للفرد هى سر بين هذا الفرد والله وليس عليه ان يدفع حسابات لغيره فان كنت قد طالبتك بهذا فهو خطأ اعتذر عنه .. اما ما يمكن ان تحويه مذكراتى فلن يجدوا ابدا شيئا عنيفا او مناقضا لما اقوله فى رسالتى الآن ... واذا كنت تتألمين من علاقتى الحالية بتشرتكوف فاننى على استعداد للامتناع عن رؤيته رغم ان هذا سيؤلمه اكثر منى .. لانى اعرف كم سيكلفه هذا .. لكن ان شئت فسأفعل.... ».

« ليوتولستوى »

★ وبعد ان كتب تولستوى هذة الرسالة لزوجته كتب رسالة أخرى لتلميذه تشرتكوف وارسلها مع ابنته ساشا يطلب فيها مذكراته .. وفعلا احضرت ابنته مذكراته فأخذها ووضعها فى بنك الحكومة حتى لا تسحب الا بتوقيعه هو او ورثته .. وفى اليوم الثانى والعشرين من شهر يوليو عام عشرة وتسعمائة والف كتب تولستوى وصيته فى الغابة .. فوهب ابنته ساشا التى تتبنى افكاره كل اعماله الادبية ومخطوطاته .. وقد فعل ذلك حتى تصبح الوصية قانونية.. وفى ملحق الوصية عبر عن رغبته فى ان تكون كل ممتلكاته ومؤلفاته للشعب.. وهذا ما فعلته ابنته الكسندرا الشهيرة باسم ساشا .. وكتب تولستوى رسالة وداع لزوجته وللعالم كله ذكر فيها انه مل حياة الترف ويود ان يعيش فى غرفة واحدة مثل اى فلاح آخر حتى ينعم بالهدوء الذى يحتاجه فى شيخوخته.

وفى الساعة الخامسة فجر يوم الثامن والعشرين من شهر اكتوبر من نفس العام ترك تولستوى بيته سرا هاربا مع طبيبه .. واستقل القطار الى الدير الذى تعيش فيه شقيقته الراهبة ليودعها .. ثم تبعته ابنته ساشا فطلب منها ان تسرع به الى خارج روسيا فاستقلا قطارا آخر ، وبينما تولستوى يحاول الهرب مع ابنته وطبيبه اذ بالخبر ينتشر فى كل انحاء روسيا .. وتدخلت الحكومة وامرت الشرطة

بمنعه من اجتياز الحدود .. وعرف تولستوى فنزل فى محطة استوبوف وكان قد اعياه التعب ولجأ الى كشك ناظر المحطة واضطجع على سرير حديدى يعانى سكرات الموت .. وهرعت زوجته اليه لتراه ولكنها لم تتمكن فقد اغلقوا عليه الباب ومنعوها من الدخول ... وفى الساعة السادسة من صباح اليوم السابع من شهر نوفمبر عام عشرة وتسعمائة والف رحل تولستوى عن عالمنا وهو يردد .. هذا حق .... هذا اروع .. لو كنت اعرف أن الموت رائع هكذا لاستدعيته منذ وقت طويل .... ودفن جثمانه بعد يومين .. وبعد اثنى عشر عاما من رحيله رحلت زوجته صوفيا فى نفس الشهر الذى رحل فيه شهر نوفمبر ولكن قبل موعده بثلاثة ايام .

* وقد هزم تولستوى اليأس عندما احب الناس جميعا مثل اسرته ، وكتب كل ممتلكاته للشعب ونفذ وطبق مبادئه التى عاش ينادى بها ... ولكن الم يكن من الافضل ان يخصص جزءا ولو ضئيلا من ثروته لابنائه وزوجته ؟ .. اليس مسئولا عنهم كما هو مسئول عن الشعب كله ؟

* هذا سؤال يفرض نفسه على كل من يتعرض لحياة الفيلسوف الكبير والاديب الفحل تولستوى دون ان يجد له اجابة .

أبراهام لنكولن

العاشق الانسان

« لانى غير مستعد لان اكون
عبدا فانى أرفض أن اكون سيدا
أيضا »

لنكولن

لو لم يكن ابراهام لنكولن الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة:الامريكية واول من وضع مبادئ الحرية فى الدستور الامريكى .. والرجل الشجاع الذى حارب من اجل وحدة امريكا والغاء الرق واستعباد الانسان لاخيه الانسان...
لو لم يكن لنكولن كل هذا لعرفه التاريخ عاشقا من أصحاب القصص والحكايات المعروفة ، مثل روميو وجوليت ، وعنتر وعبلة ، وأنتونى ، وكليوباترة وغيرهم .

* كان بسيطا متدينا متواضعا محبا للناس ، أبعد ما يكون عن التعاظم والنفاق والابهة ، وربما يرجع ذلك الى طفولته ونشأته الاولى ، وتعال نتعرف عليه منذ البداية .

* ولد ابراهام لنكولن فى صباح يوم الاحد الثانى عشر من شهر فبراير عام ١٨٠٩ ، وقد استقبلته الحياة فى كوخ متواضع ليس به من الاثاث سوى مقعد خشبى وسرير مقترب من الارض بشدة مقام على جذوع الاشجار ، أما الوسادة فكانت محشوة بالقش . كان أبوه « توماس » رجلا اميا شريفا يعمل مزارعا أحيانا ونجارا فى احيان أخرى ، أما أمه فكانت سيدة فاضلة صبورة تحملت الكثير من أجل أسرتها .. ومع مولد الطفل أبراهام بدأت الحياة تبتسم لوالده ، فبعد سنتين انتقلت الاسرة الى مزرعة أخرى على شاطىء نهر نوب ، ثم استطاع (توماس) شراء مزرعة صغيرة ، وبممارسة هوايته فى الصيد امتلك كثيرا من الحيوانات التى كانت تعيش فى المنطقة بكثرة مثل الغزلان والارانب والخنازير وغيرها ، وكانت زوجته الفاضلة(نانسى) تسهر على راحة أسرتها وتشوى الصيد الذى يصيبه زوجها ، وتقلى لحم الخنزير أو الديوك الرومية أو الدجاج أو الاسماك ، وفى الصيف كانت تجمع الشليك وتجففه ، وفى الخريف كانت تجمع التفاح ، أما فى ليالى الشتاء الطويلة فكانت تغزل وتنسج لتصنع اغطية للبيت وملابس للطفلين (سارا) وشقيقها الاصغر (ابراهام) .

★ اهتم الوالد بتعليم ابنه فأرسله الى مدرسة أولية تعلم فيها القراءة والكتابة والحساب ، وأظهر ابراهام منذ نعومة أظافره رغبة وميلا شديدا للمطالعة وبخاصة قراءة الانجيل المقدس ، وظل هذا الميل يزداد مع نموه وكبره كما اشتهر أيضا فى هذه السن المبكرة بقوة ذاكرته وذكائه وحبه للخطابة ، فاذا أضفنا الى كل هذا وجود أبوين كريمين شريفين شجعاه على قراءة وفهم آيات وفصول الانجيل عرفنا سبب استقامة ابراهام فى شبابه ، وتمسكه بالمبادىء السامية ، وحب الناس كل الناس ، وكراهية الظلم والاستعباد .

★ أصيبت والدة ابراهام بمرض لم يتركها الا بعد أن قضى عليها فماتت وتركت طفلها فى التاسعة من عمره تقريبا ، ولحب الطفل لامه شارك أباه فى صنع التابوت الخشبى الذى دفنت فيه ... وكان يمكن لهذا الحادث أن يهز شخصية الطفل ويدفعه الى مستقبل مجهول ، لكن قدره السعيد ، ورعاية الله له اهداه زوجة أب فاضلة عظيمة يصفها الكاتب « جون هاى » بأنها واحدة فى المليون.

★ بعد وفاة « نانسى » والدة ابراهام وجد زوجها نفسه فى حاجة الى سيدة ترعى شئونه وأولاده ، وتدير البيت ، وتذكر سيدة كان يعرفها قبل أن يتزوج ، فذهب اليها وكانت تعانى من نفس الوضع ، فقد مات زوجها هى الاخرى وترك لها ثلاثة اطفال ، وعرض توماس على « سارة بوش » الزواج منها ، فلم تعترض لانها تعرفه جيدا وتثق فى أخلاقه ، وفى اليوم الثانى من شهر ديسمبر سنع ١٨١٩ تم الزواج وانتقلت سارة مع اطفالها الثلاثة « اليزابيث » و « ماتيلدا » و « جون » الى انديانا لتعيش مع توماس واطفاله .

★ كان من حسن حظ ابراهام لنكولن أن يتزوج والده بهذه السيدة الفاضلة سارة بوش ، فقد كانت تهوى القراءة مثله ، وتعرف الله ، وتحب الناس وقد ورثت عن أبيها مكتبة صغيرة وضعتها فيما بعد فى خدمته .. كانت سارة تعامل أبناء زوجها كأبنائها تماما فلم تفرق بينهم ، بل كانت تقف مع الحق وتهاجم أطفالها اذا اخطأ احدهم ، وأحبت ابراهام ، وكانت تقرأ معه فصولاً من

الكتاب المقدس ، وقصص « روبنسن كريوز » وحكم ايوب الصديق ، وأعمال شكسبير الخالدة ، وكتب أخرى عن حياة واشنطن وتاريخ الولايات المتحدة الامريكية ، واطمأن لها ابراهام وكان يسألها عن معنى الكلمات التى لا يفهمها ، فتشرحها له وتساعده على أن يدونها حتى لا ينساها ، وشجعته على أن يكتب خواطره وآراءه ، واستطاعت هذه السيدة الفاضلة أن تكون أما ثانية لابراهام واخوته ، واكتشفت بذكائها موهبة ابراهام فى الاطلاع والخطابة وآمنت بالمستقبل الباهر الذى ينتظره . وهناك حادثتان تدلان على عظمة هذه السيدة :

الحادثة الاولى روتها ماتيلدا ابنتها قالت ان أخاها (جون) أحضر سلحفاة واراد نزع قشرة ظهرها الصلبة حتى يرى ما تحتها ، وكان ابراهام معه فلم يوافق على ذلك وهدده بالضرب ان هو فعل ذلك ، ولم يعبأ جون واخذ السلحفاة وصار يضرب بها شجرة حتى حطم قشرة ظهرها ، وماتت السلحفاة فى الحال .

ولم يسيطر ابراهام على نفسه وأعصابه وهو يرى هذة السلحفاة تتعذب حتى الموت ، فما كان منه الا أن ثار وضرب جون ، ولم يستطع جون الرد على ابراهام فقد كان الاخير أقوى منه .. حدث هذا فى غياب السيدة سارة والدة جون ، وزوجة أب ابراهام ، وبعد عودتها عرفت الحكاية فنظرت الى ابنها جون وأنبته على جريمته وقالت : لو لم يضربك ابراهام لضربتك أنا ، ثم اتجهت الى ابراهام وعانقته وقبلته تشجيعا له على رحمته بالحيوان ، وهكذا وقفت سارة ضد ابنها ومع ابن زوجها لانها رأت فى قلبه رحمة وشفقة .

أما الحادثة الثانية التى تدل على عظمة هذه السيدة فتجلت فى وقوفها ضد زوجها من اجل ابنه ، فقد اراد توماس أن يجعل من ابنه نجارا ، لكنها كانت تعرف طموح ابراهام فشجعته على الاستمرار فى الدراسة وساعدته فى ذلك ، وأقنعت والده بالعدول عن رأيه !!! وهكذا فقد ابراهام أمه ، لكن الله أهداه أما ثانية أحبته وسهرت الليالى من أجله .

* على الرغم من رفض ابراهام تعلم النجارة للعمل بها الا انه كان ينفذ ويطبق احد وصايا الانجيل العشرة وهى :

« اكرم اباك وأمك لكى تطول أيام حياتك على الارض .... »

فهو يحفظ آيات الانجيل ويطبقها ويحب والده فعلا ، من هنا كان يساعد أباه فى عمله الزراعى فى حرث الارض وجنى المحصول ، بجانب قراءاته المكثفة واعداد نفسه للمستقبل الذى ينتظره ولا يعرفه بعد .

* فى التاسعة عشرة من عمره عرض عليه احد التجار العمل معه والذهاب مع ابنه الى مدينة (نيوأورليانز) ليبيعا حمولة سفينة مشحونة بالحبوب فوافق ابراهام ، وسافر الى (نيواورليانز) وكان سعيدا بأجره الشهرى ثمانية دولارات ، ولكنه كان سعيدا اكثر بزيارته الى هذه المدينة الكبيرة التى لم ير مثلها من قبل ، فهو كالفلاح الذى يزور المدينة لاول مرة ، فشده فيها ازدحام الناس واتساع الشوارع ، ولم ينس هوايته المفضلة القراءة فبحث عن المكتبات الموجودة ، وفى مكتبة المدينة وجد ضالته وأخذ يقلب ويقرأ فى الكتب الكثيرة الموجودة بها ، وعلى الرغم من شغفه بكل انواع المعرفة الا أنه وجد فى نفسه ميلا الى كتب القانون ، فكان ينتهز وقت الفراغ ليقضيه فى المكتبة بين صفحات الكتب القانونية ، وربما أحب كتب القانون لحبه للانسانية وايمانه بالله والعدالة ، وحتى هذه السن لم يكن ابراهام قد اختار أو قرر المهنة التى يريد أن يتخصص فيها ويعمل بها ، حقيقة أنه رفض امتهان مهنة النجارة التى اراد والده أن يعمل بها ، ولكنه لم يختر بعد مهنته ، وبعد اطلاعه على كتب القانون واكتشاف ميله الكبير لها قرر فى نفسه أن يدرس القانون ليصبح محاميا .

* بعد انتهاء مهمته فى مدينة اورليانز سافر ابراهام الى مدينة نيو سالم حتى يستقل فى حياته ، وكان أول عمل يعمله هناك هو سكرتير لجنة الانتخابات بالمدينة .. وأتاح له عمله التعرف على أهل المدينة ، وكان الجميع يحملون له مشاعر الحب والود ، فهو شخصية متدينة مثقفة قادرة على اجتذاب كل من

يتعامل معها ، وغاص صاحبنا فى أعماق المجتمع ، وتطوع فى ميليشيا ولاية الينوى واشترك فى الدفاع عنها أثناء الحرب ، ورشح ابراهام لنكولن نفسه فى انتخابات المجلس التشريعى للولاية ولكن الحظ لم يحالفه رغم حب الناس ، وكان سبب فشله فى هذه الانتخابات هو انه رشح نفسه عن حزب الاقلية .

★ وبعد تجربة الانتخابات هذه التحق ابراهام بهيئة بريد مدينة نيوسالم وعمل مديرا لمكتب البريد ، وكعادته كان يحب عمله ويجيده مما دفع المتعاملين معه الى الاعجاب بشخصيته واخلاقه ، ومن ثم تعرف على عدة شخصيات كبيرة حاولت أن تخدمه بقدر استطاعتها ، من هذه الشخصيات السيد منتور جراهام الذى اعطى ابراهام دروسا فى قواعد وآداب اللغة الانجليزية ، والسيد جون ستيورات الذى ساعد ابراهام فى تحقيق حلمه الكبير فى دراسة القانون حتى أصبح عضوا فى نقابة المحامين ، وهو فى الثامنة والعشرين من عمره .

★ وتفتحت كل الابواب أمام ابراهام ، فبعد دراسته للقانون ونجاحه فى أن يكون محاميا ، رشح نفسه مرة ثانية فى انتخابات المجلس التشريعى وأصبح عضوا فيه ، وهكذا لم يستسلم صاحبنا لليأس أو الفشل بل كان يعتد بنفسه ويثق فى مواهبه واستعداده ، ثم يعمل ويعمل لتحقيق ما يريد .

★ كان ابراهام يقرأ فى الانجيل دائما ويعظ الناس ، ويحول التعاليم الدينية الجميلة الى سلوك شخصى ، فهو يكره الظلم ، ويحب العدالة ، ويزهد فى المال والجاه ، ويعطف على الفقراء ، ولا يؤمن بالرق ، بل انه تزعم الحركة التى تدعو لالغاء الرق فى وقت كان العبيد يباعون فى الاسواق ، وكان من الطبيعى أن تملك الاسر عبيدا تستعبدهم وتسخرهم فى أشق وأحط الاعمال ، وكان العبد اذا تزوج فانه يتزوج ليصبح أبناؤه وبناته عبيدا لسيده ، أما زوجته فلسيده أو أبناء سيده أن يستمتعوا بها كامرأة كيفما شاءوا .

★ وجد ابراهام فى عمله كمحامى فرصة للدفاع عن الحق والوقوف بجانب

المظلوم ، وتطبيق التعاليم الدينية ، واشباع حبه للعدالة والانسانية ، وفى هذا يقول :

★ « .. المحامى الشريف لا يجعل جمع المال نصب عينيه ، اذ أن اعظم أجر يتقاضاه المحامى الحر هو انتصاره فى قضية ترافع فيها عن متهم برىء ، أو فقير مظلوم ، أو يتيم أو أرملة أرجع اليهم جميعا حقوقهم المهضومة ، أما جمع المال فهو هدف التاجر ، وهناك فروق بين التجارة والمحاماة .. »

★ التف أصحاب القضايا والمظلومين حول ابراهام لنكولن المحامى وترافع عن المظلومين فى آلاف القضايا ، ومع ذلك كان فقيرا غارقا فى الديون ، وكان يمكنه أن يصيب ثروة طائلة من عمله لكن حبه للناس دفعه الى الدفاع عنهم بأقل أجر ، بل كان كثيرا ما يرفض أن يتقاضى أتعابا من الفقراء ، ويدفع لهم من ماله القليل الرسوم القضائية المطلوبة .

★ من الشخصيات الكثيرة التى تعرف عليها ابراهام لنكولن فى مدينة نيوسالم شاب ثرى يدعى « جون ماكنمار » ابن مزارع واسع الثراء يملك اراض كثيرة فى ولايات مختلفة ، واشتهر بجودة انتاجه من العنب ، وكان أهم عميل له يشترى هذا الانتاج ليصنع منه خمرا (رتلدج) ، وتعرف جون بابنة الأخير (آن) وحاول التقرب اليها ومصادقتها ولكنه فشل ، فدفعه غروره الى طلب يدها من أبيها رتلدج ، ووافق الاب على الفور ، لان الشاب ثرى وهو أيضا ثرى ، فاعتقد ان الثراء هو سبب كاف للزواج ، ولكن الانسة آن رتلدج لم تشعر نحو خطيبها بأى مشاعر الحب او الاعجاب ، انما كانت تجده شابا تافها لا يعرف الله ، مغرورا بماله وجماله ووسامته ، وكانت هى عكس ذلك تماما .. كانت مثقفة تقرأ كثيرا ، وتكتب الشعر .. متدينة تذهب الى الكنيسة لتسمع كلمات الله ... بسيطة ترتدى الملابس الرخيصة على الرغم من ثراء والدها .. وقد أدى هذا التباين بينهما الى نفور آن من خطيبها وعدم قدرتها حتى على النقاش معه .

★ كان جون ماكنمار من المعجبين بابراهام لنكولن ، يتردد عليه كلما زار نيوسالم وكان يطلب منه احيانا عمل بعض العقود الخاصة بصفقاته التجارية ، كما كان يستشيره فى شئونه القانونية ، وجاء جون يوما يطلب من ابراهام الذهاب معه الى ضيعة والد خطيبته رتلدج ، وذلك لفض نزاع نشأ بينهما بخصوص بعض صفقات العنب ، وذهب ابراهام معه ، ودار نقاش كثير طويل حول النزاع ، وكان كل من الطرفين يدافع عن نفسه بشدة ، وقال ابراهام لهما :

★ أهم شيء فى كافة المعاملات هو حسن النية ، وحسن النية لا يتوافر الا اذا كان ضمير الانسان حيا ، وكان مؤمنا بأن الله يعلم أفكاره التى يخفيها عن الناس .

★ وكانت آن خطيبة جون تقف صامتة تسمع النقاش ولكنها أعجبت بكلمات ابراهام فنظرت اليه قائلة :

« ..انك رجل عظيم ياسيدى .. ان الناس فى هذة الايام اصبحوا لا يتحدثون عن الله الا نادرا .. وخطيبى جون لم اسمع منه ولو مرة واحدة كلمة الله .. »

★ وهنا نظر ابراهام الى الانسة آن ثم التفت الى والدها وقال له :

« انى اهنئك ياسيدى رتلدج فقد جمعت ابنتك بين جمال الوجه وجمال الروح.

★ ورد الوالد على ابراهام فى ضيق وحزن :

ان جمال الروح هذا ، هو الذى سيجعلها فتاة بائسة .

★ وسأله ابراهام فى دهشة : ولكن لماذا ؟

★ وهنا اندفع الخطيب جون قائلا :

« انها خيالية ، تحلق مع الطيور فى السماء ، ولا تهبط على أرض الواقع ، ولكنى سأعرف كيف اجعلها واقعية مثلى » .

★ وفى غضب قالت آن لخطيبها :

« لن اكون مثلك ابدا »

★ وتدخل والدها فنهرها عن الطريقة التى تتحدث بها لخطيبها وحتى لا يتسع الخلاف تركت آن المكان وهى تقول :

★ « انه ليس خطيبى ، ما دام يكفر بالله فعلاقتى به لن تكون شرعية بأية حال من الاحوال »

★ وتعجب ابراهام لوالد آن الذى يريد أن يزوجها بشاب ليس بينه وبينها أى اتفاق ثم اشفق عليها من خطيبها الاجوف .. ولاول مرة يخفق قلب ابراهام بالحب ، ويشعر باتفاق أفكاره وطباعه مع آن الفتاة الشجاعة التى استطاعت ان تهاجم خطيبها فى أدب وصدق ، لقد وجد ابراهام نفسه فى الانسة آن ، فى البساطة ، الايمان بالله ، حب القراءة ، وكان هذا هو نفس الشعور الذى اجتاح آن نحو ابراهام فقد لعب الحب بقلبها ، وزاد اعجابها به ، وتوثقت العلاقة والصداقة ، وتقابل الاثنان ، وكانا يقضيان اوقاتا سعيدة فى ممارسة هوايتهما فى القراءة ، وتبادلا بعض الكتب ، وكان اللقاء يتم فى بيتها ، وعرف والدها ذلك ، فغضب غضبا شديدا ، وكان يقول لها :

« كيف تتركين الشاب الغنى جون لتصادقين ابراهام المحامى الفقير ؟ ثم توعدها بأنه سيقتلها معه اذا رآهما معا » .

★ وتسرب الحزن الى قلب آن ، وامتنعت عن الطعام ، وعرف المرض الطريق الى جسمها ، بل وتمكن منه فكانت تفقد صحتها وحيويتها يوما بعد يوم ، واستطاع ابراهام زيارتها وهى فى فراش المرض ، فأباحت له بصدق حبها وفى نفس الوقت غنت له أغنية حزينة ، ثم قالت له :

« أعرف ان نهايتى قد اقتربت ، ولكن روحى ستنتظر روحك فى السماء حيث الحب الابدى فى رعاية الله ، لا تحزن على كثيرا ، وليكن اهتمامك بمستقبلك فأنا أعرف انك ستكون رجلا عظيما .. »

★ اكد الطبيب لوالد آن أنه لا فائدة فى علاجها ، فقد تمكنت الحمى من قلبها ، فاندفع الاب فى البكاء المر ، وندم على قسوته مع ابنته وحبيبها ابراهام ، واراد أن يكفر عن ذنبه فقال لها :

« علمت أن ابراهام زارك فلم أشأ ان اقول لك شيئا انه انسان طيب .. »

★ وطلبت آن من والدها رؤية ابراهام فى نفس اليوم لانها كانت تشعر أنه اليوم الاخير فى حياتها ، فأجابها لطلبها وزارها ابراهام لنكولن زيارة الوداع وهو لا يعرف أنها المرة الاخيرة التى سيرى فيها حبيبة قلبه .

★ وفى اليوم التالى رحلت آن كما توقعت ، ولف الحزن ضيعة ابيها وحزن الجميع عليها .. ولكن ابراهام لم يصدق الخبر ، واخذ يبكى بكاء مرا حتى بح صوته وفقد وعيه ، كان ينظر الى السماء ليناديها ويناجيها وكان يذهب الى قبرها ليلا لينام بجواره ، وفكر جديا فى الانتحار لولا ايمانه بالله . كانت آن كل شىء فى حياة ابراهام بعد أن عرفها وأحبها ، ولما ماتت ضاقت الدنيا به ، وشعر بأنه فقد اجمل ما يملك وفى هذا قال :

« .. كاد يقتلنى الحزن بعد موت حبيبتى ، لكنى دفنت قلبى مع آن بعد موتها ... »

★ ودارت الايام وتعرف ابراهام على الآنسة مارى أونيز التى حاولت أن تخرجه بل تغسله من الحزن العميق الذى عاشه بعد وفاة حبيبته ، وطلب الزواج منها ولكنها رفضت فنسيها .. واخيرا تزوج ابراهام بسيدة ارستقراطية هى « مارى تود » أحبها وأحبته رغم الاختلاف بينهما ووقفت وراءه وشجعته لترشيح نفسه لعضوية الكونجرس الامريكى ، ثم لرئاسة الولايات المتحدة الامريكية .

★ كان من الطبيعى أن ينجح ابراهام لنكوان فى انتخابات الرئاسة بعد أن رشح نفسه عن الحزب الجمهورى ، فقد عرف عنه نزاهته ووطنيته ، وايمانه بالله ، والتف الناس حوله وأحبوه وانتخبوه عام ١٨٦١ رئيسا للولايات المتحدة الامريكية ، فكان الرئيس السادس عشر لها ، ولم تتغير شخصيته بعد أن فاز بالرئاسة ، بل ظل كما هو بسيطا متواضعا ، يصافح الناس فى الشوارع ، ويفتح باب داره بنفسه للضيوف بل يفتح قلبه لهم ايضا ، ويزهد فى المال ، ويهتم بتعاليم الدين ، وكانت بساطته هذة تثير غيظ زوجته الارستقراطية ، ولكنه لم يهتم بتعليقاتها ، وكانت أول زيارة قام بها بعد توليه

الرئاسة هي زيارته لزوجة أبيه السيدة سارة بوش التي ساهمت بقسط وافر في تربيته واعداده لهذا المستقبل المشرق ، كان وفاء منه لها أن يزورها في بيتها ، وقد اقترحت زوجته أن يبعث لها مندوبا ليحضرها معززة مكرمة الى البيت الابيض ، لكنه رفض وذهب اليها بنفسه محتملا ظروف الطقس السيئة في ذلك اليوم ، وعدم وجود مواصلات مما اضطره الى ركوب قطار بضاعة ، وذهب اليها وقبل يدها ، وتناول العشاء معها اعترافا منه بجميلها عليه واحترامه لها .

★ على الرغم من المدة القصيرة التي رأس فيها ابراهام لنكولن الولايات المتحدة الامريكية ، والتي لم تزد عن خمس سنوات (١٨٦١ الى ١٨٦٥) الا انها تركت بصمة واضحة في تاريخ الولايات المتحدة ومستقبلها ، فقد كان ابراهام لنكولن أول من ناد بحرية الصحافة لانها خير ضمان لحرية الامة ، وهو أول من وضع المبادئ الانسانية السامية في الدستور الامريكي ، وهو الرجل الشجاع الذي حارب الرق والغاه على الرغم من الصعوبات الكثيرة التي قابلها من اجل ذلك ، وفي هذا قال :

« ان إباحة الرقيق أمر ينافي أبسط المبادىء الانسانية وهو كفر بالله وبتعاليم الكتاب المقدس ، فقد ولد الناس احرارا فكيف تجعلونهم أرقاء .. »

★ غير أن القضية التي كرس ابراهام لنكولن لها حياته وجهده كانت قضية اتحاد الولايات المتحدة ، فقد آمن بضرورة هذا الاتحاد ، وذلك لعدة أسباب طبيعية هي تجانس سكان الولايات ، ووحدة البلاد الطبيعية ، سواء في سواحلها ، أو انهارها ، أو جبالها ، أو في وحدة اللغة ، والمستقبل المشرق الذي ينتظر الولايات المتحدة تحت هذا الاتحاد ، ومن اجل هذا الاتحاد خاض ابراهام حربا مريرة وهو رجل السلام والمبادىء ، وفي هذا قال :

« لقد بذلت كل ما في وسعي لانقاذ الاتحاد ، دون نشوب حرب ، ولكن عملاء التمرد والانفصال كرسوا كل جهودهم للقضاء على الاتحاد دون حرب أيضا ، وأخيرا فضلوا اشعال نار الحرب على صيانة الامة ، بينما فضلت قيام

الحرب على فناء الامة التى كانت ستفنى حتما بدون اتحاد .. »

★ وقامت الحرب بين ولايات الشمال وولايات الجنوب ، وما كان الشمال والجنوب متعادلين فى القوة ، كان عدد سكان الولايات الموالية الاثنتين والعشرين حوالى عشرين مليونا ، وسكان الولايات المنشقة الاحدى عشرة ستة ملايين تقريبا ، فيما عدا العبيد ، وكانت صناعة الشمال وموارده ، وقوته البشرية تفوق كثيرا ما للجنوب ، ولكن الجنوب فى نفس الوقت كان يتمتع بروح عسكرية قتالية عالية .. كان الجنوب يحارب من أجل حق كل ولاية فى الانفصال والاستقلال ، بينما رأى الشمال أنه ليس من حق الاقلية تحطيم الحكومة حين تشاء .. واخيرا انتصر الشمال على الجنوب ، وكان الانتصار هو انتصار لفكر ابراهام لنكولن الوحدوى من اجل بقاء الولايات المتحدة متحدة دائمة وقوية ، ومن اجل تحرير العبيد أيضا .

★ لم يستطع ابراهام لنكولن أن يتمتع بانتصاره ، فقد انتهت حياته بعد ذلك بقليل ، وكانت نهاية مأساوية اذ بينما كان يشاهد مسرحية (ابن عمى الامريكى) على مسرح فورد مع زوجته اطلق عليه ممثل مجنون موتور يدعى جون بوث الرصاص فظل فى غيبوبة حتى فارق الحياة ، ومن عجب أن ابراهام شهد حادث وفاته فى الحلم قبل أيام من الحادث وحكى لزوجته الحلم ولكنها حاولت أن تنسيه رغم خوفها وتشاؤمها منه .

★ هذه قصة حياة عبقرى فذ هو ابراهام لنكولن ، عاش ستة وخمسين عاما من ١٨٠٩ الى ١٨٦٥ ، ولم يعش لنفسه وحسب ، وانما عاش لوطنه وللانسانية كلها .

وعندى أن ابراهام لنكولن من العباقرة القلائل الذين هزموا اليأس ، فقد ظل متواضعا طوال حياته ، وحتى بعد أن اصبح الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الامريكية ، فقد هزم يأس الانسان من غرور الانسان ، واستطاع بوعيه واستيعابه للتعاليم الدينية وحبه لكل الانسانية أن يهزم اليأس

من ظلم الانسان لاخيه الانسان ويحرر العبيد ، فالله الذى خلق العبد هو الذى خلق الحر .

* والسؤال الذى يفرض نفسه علينا ونحن فى نهاية القرن العشرين هو ... هل تحرر العبيد فعلا ؟ وهل تحرر الانسان من فكرة الرق واستعباد أخيه الانسان؟

لودفيج فان بيتهوفن

يصارع القدر

« لأغالبن القدر دون أن احنى له هامتى »

بيتهوفن

★ جميل ان تستمع الى نغمات بيتهوفن الرائعات ، وتتمتع بموسيقاه الشجية المعبرة ، وأجمل من ذلك أن تعرف قصة حياته وصراعه مع الفقر والمرض وتحمله الآلام من أجل رسالته التى آمن بها وهى اسعاد الناس بموسيقاه وموهبته الفياضة .

★ وعلى الرغم من روعة مؤلفاته الموسيقية العديدة ، وسيمفونياته التسع العظيمة الا أن هناك سيمفونية خالدة قد لا يعرفها الكثير وهى حياته وهى عندى لا تقل أهمية وروعة عن انتاجه .

★ واذا كانت السيمفونية العادية تتكون من أربع حركات فاننا نستطيع أيضا أن نقسم سيمفونية بيتهوفن الخالدة ، أى حياته الى اربع مراحل هى :

اولا : موهبة تعبر عن نفسها
ثانيا : عقبات فى الطريق
ثالثا : الانتصار والعبقرية
رابعا : حب ورحيل

اولا : موهبة تعبر عن نفسها :

شهدت مدينة « بون »الالمانية عام ١٧٧٠ للميلاد مولد الطفل « لودفيج فان بيتهوفن » من أم طيبة تعمل بجد من أجل أسرتها هى السيدة « ماريا ماجدلينا لايم » ابنة أحد طهاة القصر ، أما ابوه فكان عاشقا للخمر ، أسلم لها قياده فأبعدته عن مسئولياته مما ضاعف من مسئوليات الام الفاضلة ، وقد ورث والد بيتهوفن عن جده حبه للموسيقى ولكنه لم يرث عنه قوة الشخصية والاحترام ، كذلك ورث مركز اباه مغنيا عند الحاكم ، أما أصل الاسرة فلم يكن المانى صميم وانما انحدر من فنلندا .

وبالرغم من عربدة والد بيتهوفن وولعه بالخمر ، الا أنه استطاع أن يكشف

موهبة طفله الموسيقية ، وقدرته على اللعب على الآلات وسرعة تقبله للفن ، ومن ثم تأكد له المستقبل الباهر الذى ينتظر بيتهوفن الصغير ، ووجد الفرصة فى أن يهتم بطفله حتى يجعل منه (موتسارت) آخر ، لا من اجل الفن الخالص ، وانما من أجل مصلحته الشخصية ، ليستطيع الحصول على مال وفير يحقق له ما يريد ، ويشبع نهمه للخمر التى ملكت عليه حياته ، حاول الأب ايقاظ موهبة طفله مبكرا جدا فكان يدربه ليل نهار فى قسوة لا تتفق وروعة الفن أو سن الطفل ، حتى أن أحد جيرانه رآه وقت التدريب فاندهش قائلا.. « لن أنسى وقفة لودفيج وهو يبكى أمام البيانو » .. وكان طبيعيا أن يكره الطفل الفن ويبتعد عن البيانو نتيجة لقسوة والده ، لكن موهبته الاصيلة جعلته يتحمل كل ذلك ويقبل على البيانو ليخرج منه ما لا يستطيعه الكبار من نغمات شجية ، وجاء والده ببعض المدربين ليدربوه على آلات موسيقية أخرى كالاورجان – آلة الكنيسة – والكمان . فكان منهم من يأتى بعد انتهاء عمله الفنى فى منتصف الليل ليدرب الطفل حتى الصباح ، فكان يتقبل ذلك فى سعادة وحب ، ولم يهرب من التدريب بل كان كثير السؤال عن كل دقائق الآلة الموسيقية وعن التأليف الموسيقى وقواعده ، وفى سن العاشرة تقريبا قدم لاستاذه قطعة موسيقية من تأليفه فانبهر الاستاذ وعرفه أنه لا يستطيع عزفها ، فرد بيتهوفن الصغير .. حسنا سأعزفها اذن عندما اكبر ..

لم يكتف الطفل بيتهوفن بدروس والده وأساتذته الموسيقيين بل كان يبحث عن كتب الموسيقى ليقتلها بحثا ويزيد معرفته بها ، ومن هذه الكتب التى وجدت هوى فى نفسه وأفادته كتاب « البيانو المهذب » تأليف الفنان باخ .. اذ انكب عليه يقرؤه وعلى الفن الموسيقى ينهل منه ليل نهار ، ليصقل موهبته الطبيعية ، وعندما وصل سن الرابعة عشرة طلب الحاكم الجديد « ليون مكسمليان فرانز » تقريرا عن كل العاملين فى البلاط ، وجاء فى التقرير عن والد بيتهوفن أن صوته ضعيف وأنه خدم القصر كثيرا ، أما لودفيج بيتهوفن الطفل الموهوب فقد أشاد التقرير بمقدرته الفنية الفائقة ، وأنه خدم البلاط دون

مرتب لمدة سنتين ، وأن حالته المادية سيئة ، وكان نتيجة ذلك أن خصم الحاكم ثلث مرتب الاب وأعطاه للابن .

كان عمل لودفيج فان بيتهوفن مصاحبة الاصوات فى الغناء عن طريق اللعب على البيانو ، ولكنه وجد أن هذا العمل لا يتفق ومقدرته وطموحه فهو لم يعد نفسه ليكون مجرد عازف ، ومن ثم دفعته هذة الثقة بنفسه الى أن يتراهن مع البعض على ارباك رئيس المغنيين فى احدى الحفلات الاسبوعية المهمة التى يشهدها الحاكم ، وبدأ الحفل فأخذ يلعب على البيانو فى هدوء ثم بدأ يحاكى النوت الاصلية التى أمامه بنوت من تأليفه دون أن يخرج عن اللحن الاساسى ، وفعلا ارتبك المغنى وتوقف ثائرا ثم طلب طرد بيتهوفن من الحفل ، وتدخل الحاكم وأنب بيتهوفن على فعلته ، وطلب منه أن يتخلص من شقاوة الصبيان هذه .

الى (فينا) عاصمة الفن وقتذاك وموطن الفنان الكبير موتسارت ، المثل الاعلى لبيتهوفن ، اتجه نظر فناننا الصغير الذى يبلغ الآن السابعة عشرة من عمره ، كان أمله أن يقابل موتسارت ويدرس على يديه ويعرف رأيه الخاص فى فنه ، وسافر بالفعل الى فينا ، وفى بيت موتسارت لم يصدق نفسه وشعر برهبة المكان ، ورحب به الفنان الكبير ثم قاده الى البيانو ليلعب عليه ، وازدادت رهبته وارتعشت اصابعه وهو يلعب قطعة لباخ ثم توقف عن العزف وانفجر فى البكاء قائلا :

لا .. لا .. ليس هكذا .. اعذرنى .. اعطنى فرصة اخرى فأنا مضطرب .. وخفف الفنان الكبير من عصبية بيتهوفن وطلب منه أن يلعب جزءا من مسرحيته الاخيرة « دون جوان » فأمسك بالنوتة ، واندفع فى العزف دون اضطراب هذة المرة ، وبدأت النغمات تعلو وتهبط وتضحك وتبعث فى النفس الراحة والبهجة والهدوء ، وانبهر موتسارت ببيتهوفن وتنبأ له بمستقبل باهر وقال لاصدقائه :

« تنبهوا الى هذا الغلام فسيكون له شأن وسيذكره العالم » وفى غمرة الاعجاب وعد موتسارت الفنان الشاب باعطائه دروسا فى الموسيقى وأن يفشى له بسر المهنة ، لكن ظروف الاخير لم تساعده على البقاء فى « فينا » اذ تلقى خطابا يحمل اخبارا سيئة عن والدته ، فقد اشتد بها المرض ونخر السل عظامها ، ولحبه الشديد لها ترك فينا متجها لبون ليراها ويطمئن عليها ، وكان محبا لامه بارا بها وعنها قال :

« اذكر انها أم رؤوم وكانت لى نعم الصديق فى معترك الحياة ، ولشد ما كانت سعادتى حينما أناديها بلفظ أماه » .

وصل بيتهوفن الى بيته فوجد أمه تعانى سكرات الموت فودعها بحب واعتراف بالجميل ، وانتقلت الى الرفيق الاعلى فزدات مسئولياته عن الاسرة ، وأصبح هو العائل الحقيقى لها والمسئول عن كل افرادها حتى والده السكير ، وهو الفتى الذى لم تتجاوز سنه ثمانية عشرة ربيعا ، واضطر الى البقاء فى بون للقيام بمسئولياته ، وهو المشتاق الى الحياة فى فينا عاصمة الموسيقى والفن الرفيع ومهد العباقرة ، وابتسم له الحظ فتعرف على عائلة « فون برونتج » الارستقراطية وعمل مدرسا للموسيقى لافرادها ، ورأت سيدة الاسرة – مدام برونتج – فيه موهبة تحتاج الى رعاية فاحتضنته واعتبرته فردا من الاسرة وحنت عليه ، فوجد فيها حنان الام ورعاية الاب ، مما ساعده على تقوية شخصيته وتهذيب عاداته ، وتعلم كيف يتعامل مع الناس وكبار القوم ، كذلك استطاع الاطلاع على أمهات الكتب ومعرفة اشعار هوميروس وبلوتارك ، وبذا وجد بيتهوفن الاستقرار العائلى مع اسرة برونتج – مما ساعده على صقل موهبته والتعبير عنها ، وظل الحظ مبتسما له فتعرف ايضا على الكونت « فالدشتين » الذى كان يمده بالمال الوفير من وقت لآخر لمعرفته بالضائقة المالية التى يعانى منها ، وكان يعرفه أن المال الذى يمنحه اياه هدية من الحاكم وليس منه شخصيا حتى يحافظ على شعوره ، ولم يكتف الكونت بتوفير المال لبيتهوفن وانما اخذ يشجعه على السفر الى فينا لدراسة الموسيقى والتعمق فيها على ايدى استاذها المعروف

وقتذاك هايدن ، وكان هذا أمل الفنان الشاب .

وجدت عبقرية بيتهوفن فى فينا خلال زيارته الثانية لها سنه ١٧٩٢ ارضا خصبة ومتنفسا كبيرا لها ، استطاع أن يَدرس ويعزف ويُدرس الموسيقى لابناء الاشراف مما جعل صيته وشهرته يلف كل الارجاء ، ولم ينس هدف زيارته الاساسى وهو الدراسة على يد الفنان الكبير هايدن والتقى به وتابع الدرس معه ، لكن العلاقة بينهما لم تستمر فقد رأى احد اصدقاء بيتهوفن الكراسة الخاصة بدروس هايدن ووجد بها أخطاء شتى لم يهتم بها الأستاذ ويوجه تلميذه لها ، فانصرف بيتهوفن لمدرس آخر لكنه لم يمتنع كلية عن هايدن حتى انشغل الاخير وغادر فينا فى رحلة فنية فأصبح فناننا حرا طليقا ، وكان يقيم فى قصر البرنس « ليشنوفسكى » ضيفا كبيرا محترما على الرغم مما كان سائدا فى هذا الوقت ، اذ كان الفنان يعامل كالخادم يأكل ويشرب وينام معهم ، وعليه الطاعة الكاملة فيأمره سيده بالعزف أو التأليف أو الغناء فى أى وقت ، وثار بيتهوفن على هذا الوضع المهين ، واعتبر الفنان أعلى مرتبة من البشر العاديين ، ووضع رأسه بين رءوس الامراء والاشراف ، وليس أدل على هذا من أنه دق الجرس فى احدى المرات لاستدعاء الخادم وهو فى قصر البرنس ليشنوفسكى وفى نفس الوقت دق البرنس الجرس لنفس الغرض فما كان من الخادم الا أن جاء الى سيده اولا مما ضايق بيتهوفن وأثار غضبه ، ولاحظ البرنس ذلك فأمر خادمه بأن يذهب الى بيتهوفن اولا ويستجيب الى طلبه .

وهكذا كانت بداية بيتهوفن موهبة ثائرة تعبر عن نفسها كلما امكن ، ووجدت نفسها فى عاصمة الفن وقتذاك فينا ، ودرس وتعمق على أساطين الفن ، وقرأ كتب التأليف الموسيقى ، وقد حقق للفنان وهو ما زال شابا فى ربيع العمر الاحترام الكامل المفقود .

ثانيا : عقبات فى الطريق :

يقولون فى الامثال ان المشكلات والعقبات والأزمات تخلق الرجال فما بالك

بالعباقرة ؟ ان العقبات تصهرهم ، وتجلى عبقريتهم وتعطى حياتهم مذاقا خاصا كما يفعل الملح فى الطعام ، فمهما كان الطعام جيدا ومنوعا فلا يمكن تناوله الا بالملح ، هكذا العقبات بالنسبة للعباقرة تكاد تكون ضرورة للنضج والعمل والانتصار .

وصاحبنا بيتهوفن عانى من العقبات الكثير منذ نعومة أظافره وحتى آخر يوم فى حياته ، ومع ذلك لم تثنه عن العمل وشحذ عبقريته للمساهمة فى اسعاد الانسانية بروائعه الموسيقية ، وكانت أولى هذه العقبات هى عربدة الاب وعشقه للخمر ، ثم قسوة هذا الاب على ابنه الموهوب فى اثناء التدريب على العزف على البيانو ، وكان يمكن لهذه الموهبة أن تقتل فى مهدها نتيجة قسوة الاب ، أو على الاقل يتأخر نضجها وابداعها .. وعندما ماتت امه أصبح بيتهوفن المسئول عن الاسرة والعائل الوحيد لها ، ولم يكن صاحبنا بالفتى الجميل الذى يشد انتباه الناس أو يجذب عطفهم اليه ، بل كان ذا عينين جاحظتين ورأس ضخم ، هذا بالاضافة الى طباعه الخشنة ولهجته الريفية والنوبات العصبية التى كانت تهاجمه من وقت لآخر .

كان البؤس والفقر صديقيه ، وكلما ابتسمت له الحياة سرعان ما تريه وجهها العابس القاتم ، وحتى وهو فى أوج عظمته وشهرته أحب كثيرات ولكنهن ابتعدن عنه واستخففن بشعوره مما حطم قلبه ، فهذه تلميذته « تريزا مالفيتى » ترفض الزواج منه لكبر سنه ، وتلك قصة حب عنيفة تنتهى للاشىء ، ويحاول المؤرخون معرفة بطلتها ولكنهم يفشلون ، لقد عثروا على خطابات بيتهوفن لحبيبته المجهولة والتى تنبض بالحب وصدق الشعور ، ومع ذلك ظلت مجهولة ، يقول لودفيج بيتهوفن لمحبوبته فى أحد هذه الخطابات :

آه ياحبيبتى .. انك دائما معى فحيث أكون تكونين .. سأعمل جهدى على أن نعيش معا ويالها من حياة .. ان قلبى زاخر بالعواطف ولكن تنتابنى لحظات أشعر فيها أننى لا احسن الكلام ... تشجعى وكونى ثابتة على عهدك

لى فأنت كنزى الثمين .. حياتى وملاكى ...
« حبيبك المخلص لودفيج بيتهوفن »

عاش بيتهوفن بغير زواج فلم يوفق فى حياته العاطفية وربما ساعده ذلك على أن يتفرغ لموسيقاه وموهبته ، ولكنه بلا شك تعذب فى هذه الناحية .

وبالرغم من أنه عاش عزباً دون زواج الا أنه كان يحب الحياة الاسرية وعوض ذلك عن طريق حبه وعطفه على ابن أخيه ، الذى دخل فى صراع وقضايا حتى ينتزعه من أمه ويصبح هو مسئولا عنه وولى أمره ، ولكن الفتى « كارل » لم يبادل عمه الحب ، ولم يشعر بالراحة فى معاملته ، اذ كان بيتهوفن شديد الخوف عليه من اصدقاء السوء ، ولم يجد الفتى بداً من أن يحاول الانتحار فاطلق رصاصتين على نفسه وأنقذ فى اللحظات الاخيرة ، وعلى الرغم من كل هذا ظل العم على حبه ووده لابن أخيه ، وكتب له قبل موته كل ما يملك ، وهكذا وقفت الاشواك فى وجه بيتهوفن وتنكرت له الايام ، حتى ابن أخيه معقل آماله وموضع عطفه وحنانه لم يبادله عواطفه أو يقابل احسانه بالامتنان .

فى حياته العملية ، وفى مجال الموسيقى ابتدع بيتهوفن قواعد جديدة فى التأليف ، وخرج عن المألوف بثورة لم يقدرها معاصروه ، بل كان صداها تهكما عليه وسخرية من أعماله ، فى احدى رباعياته استسلم بيتهوفن لخياله وأخرج موسيقى جديدة لمعاصريه ، بل للعازفين أيضا ، وحسب بعضهم أن هناك خطأً وقع فيه المؤلف دون قصد ، وتشجع أحدهم وسأله .. هل تعتقد أن هذه موسيقى ؟ ورد بيتهوفن بهدوء :

« لا تجزع ياصديقى .. انها ليست لك وانما لجيل لم يخلق بعد » منتهى الثقة من فنان عبقرى يعرف ماذا يعمل ويقدر فنه ويحترمه .

هذة المشكلات والعقبات فى مجموعها تعتبر عادية اذا قيست بالعقبة الرئيسية والآفة الخطيرة التى بدأت تهاجم فناننا الكبير وهو ما زال فى شرخ الشباب ، لقد ابى قدره الاسود أن يترك له حاسة السمع – وهى الحاسة المطلوبة والضرورية فى عمله الموسيقى – سليمة قوية .. بل انتزعها منه رويدا رويدا ، بدأ المرض وبيتهوفن فى الثامنة والعشرين من عمره تقريبا على شكل اصوات متباينة عالية تطن فى أذنه ، وحسبها فى البداية صوت الامطار تهطل ، والرعود ترعد ، والطبيعة تثور ، واتجه الى النافذة ليفاجأ بأن الطبيعة هادئة والسماء صافية ، وتعجب وعاد الى فراشه ، ولم تهدأ الاصوات التى يسمعها بل زادت وزاد معها خوفه واضطرابه ، وطلب خادمه وسأله عما يحدث فى الخارج وشرح له حالته ، وبهت الخادم من هذه الاصوات التى يسمعها سيده والتى ليس لها وجود ، وأيقن بيتهوفن اخيرا أن هذه الاصوات تصدر عنه هو وربما كانت بسبب الارهاق والتعب ، وحاول أن ينساها ، وبعد أيام قليلة عادت الاصوات تطرق أذنه اليسرى بشدة ، ولم يجد بدا من أن يذهب الى أحد الاطباء المشهورين ليعرض عليه حالته ، وبعد الكشف طمأنه الطبيب بأن الحالة مجرد زكام عنيف أثر فى طبلة الاذن وأن عليه أن يصب فى أذنيه بضع نقط من زيت اللوز الذى سيسرع بشفائه ، واخذ بيتهوفن يحاول علاج أذنه اليسرى ، لكن قدره لم يرحمه ، وانتقل الطنين الهائل والاصوات المخيفة الى أذنه اليمنى ايضا ، وظل فى صراع مع قدره ، يفقد الامل مرة ثم يستجمع قواه ليعيش فى أمل كبير فى الشفاء ، وكان ينتهز فرصة هدوء المرض لينغمس فى العمل والتأليف الموسيقى ليكتب لنا أروع الالحان والنغمات ، ومن عجب أن تخرج الحانه وهو المريض المتألم رائعة مرحة راقصة فرحة ... ولشد ما كان يخجل من مرضه الذى جعله يجلس مع اصدقائه ومعجبيه دون أن يستطيع متابعة أحاديثهم ، وكان أحيانا يتظاهر بالسرحان والانشغال حتى لا يفضح نفسه ، ولكنه أخيرا اعترف لاصدقائه بمشكلته ومرضه ونقل اليهم أحاسيسه العميقة المتألمة ، وفى رسالة الى صديقه (كارل أمند) بعضها فى يونيو سنه ١٨٠٢ قال بيتهوفن :

« آه كم اكون سعيدا لو ارتد الى سمعى فأسرع اليك ، أما الآن فانى اعتزل العالم بما فيه واقضى الحياة منزويا لا مطمع لى فى تحقيق أمل أو توفير سعادة ، ولكنى مصمم على أن اتخطى الصعاب ، ان مرضى الى الآن لا يحول بينى وبين العزف والتأليف ، ولكنه يحرمنى نعمة التحدث الى الناس والاستماع اليهم وتبادل الآراء معهم ، أرجو أن يبقى امر هذا الخبر سرا لا تذيعه لصديق وأن تحتفظ به لنفسك »

وفى رسالة أخرى الى طبيبه وصديقه « فجلر » يعبر بيتهوفن عن معاناته الشديدة من المرض فيقول :

« انى اسمع فى اذنى وقرا يدوى ليلا ونهارا فعدت حياتى تعسة ، وهاأنذا منذ سنتين معتزل العالم ، أنفر من المجتمعات لانى آنف أن ابوح للناس بأنى أصم ، لو لم أكن موسيقيا لهانت المصيبة ، واعدائى كثيرون ولسوف يستغلون عاهتى ، لو كان فى الامكان تحدى القدر لفعلت ، أرجو أن تحتفظ بهذا السر لنفسك. »

ظل صاحبنا يحاول العلاج بكل الوسائل دون جدوى أو فائدة مما سبب له ازمات نفسيه دفعته فى حالة يأس أن يفكر فى الانتحار ، وكتب فى السادس من اكتوبر عام ١٨٠٢ وصيته المعروفة ، لكنه عاش بعدها خمسا وعشرين سنة وفيها يقول :

« يامن تنظرون الى زاعمين أننى حقود أو متشائم فى الحياة ، لشد ما تظلموننى ، لانكم لا تعرفون السبب الخفى الذى يظهرنى بهذا المظهر ، لقد كان عقلى وقلبى منذ الطفولة متجهين نحو عاطفة رقيقة هى الطيبة ، وكنت دوما متهيئا لاقوم بأعمال عظيمة ، ولكن صممى الذى مضى عليه ست سنوات هو سبب شقائى ، لقد خلقت ذا مزاج حاد ميالا الى المسرات والاجتماع وحب الناس ثم قضى على وأنا ما ازال فى شبابى واتجه بى الى حياة العزلة ، وحاولت التغلب على ذلك فصدمتنى التجربة القاسية غير مرة حتى

شرعت فى الانتحار ! لكن الفن والفن وحده هو الذى استبقانى .. لقد وضح لى أنه من المحال أن أترك هذا العالم قبل أن اتم الرسالة التى اشعر اننى مطالب بأدائها »

ومع وجود كل هذة العقبات مجتمعة الا أن صاحبنا قرر أن ينتصر ثم بدأ ينفذ القرار عمليا ويشحذ عبقريته الفنية من أجل الابداع والانتاج ، وكان الفن وسيلته للهروب من اوجاعه واتعابه ، واستطاع أن يتحدى قدره .

ثالثا : الانتصار والعبقرية :

استطاع بيتهوفن الانتصار على آلامه واتعابه وتقديم فنه الجميل للانسانية ، والاحتفاظ باسمه كأحد عباقرة الزمان ، وهذا يرجع لسببين الاول هو عبقريته المتدفقة وموهبته الفنية ، والسبب الثانى تحديد للقدر وايمانه برسالته فى مجال الموسيقى .

كانت طريقة بيتهوفن فى التأليف هى الخروج الى الحقول والمروج بين احضان الطبيعة لساعات طويلة ومعه كراسة يسجل فيها انطباعاته ، ويفضى اليها باحساساته ثم يحفظها ويعود اليها وقت التأليف ، يأخذ منها بعض ما يرى ملائما لما يكتب ، فلم تكن موهبته لتساعده فى أن يخرج قطعة موسيقية فى جلسة واحدة ، وانما هو يبحث عن الابداع ويعتصر موهبته وعبقريته ليقدم لنا الافضل دائما ، لهذا نراه يتردد ويتمهل فى كتابة السيمفونيات بالذات ، وهى ارق أنواع التأليف الموسيقى ، فبينما كتب الموسيقار « هايدن » ما يزيد عن مائة سيمفونية ، وكتب « موزار »[1] احدى وأربعين لم يكتب بيتهوفن الا تسعا فقط ، وان توخينا الدقة نقول ان حياته لم تطل لتتيح له فرصة تأليف

---

(١) ارجع الى كتابنا الاول بعنوان « عباقرة رحلوا زهورا » الصادر عن دار الشعب فى يونيو ١٩٧٥ صفحة ٦٧ فى الفصل الخاص بموزار .

اكثر من تسع سيمفونيات ، ومن المعروف أنه شرع فى كتابة السيمفونية العاشرة ولكن العمر لم يسعفه .

اتفق النقاد على اقتراح« دى لنز » مؤرخ حياة بيتهوفن بتقسيم حياته الى ثلاثة ادوار ، الاول هو البداية وفيه يحاكى بيتهوفن فى أعماله وموسيقاه نماذج أستاذيه هايدن وموزار ، والدور الثانى هو مرحلة الخروج عن المألوف والتعبير عن ذاته ، وبداية مرحلة الرومانتيكية ، أما الدور الثالث فهو الاكتمال ونضوج العبقرية .

بلغ الصمم أوجه فأصبح بيتهوفن لا يسمع البته ، ومع ذلك فقد اخرج لنا أروع أعماله .

ونستطيع أن نوجز أهم أعمال بيتهوفن فيما يلى :

اولا : تسع من السيمفونيات ، سوف نشرح أهمها بعد الموجز .

ثانيا : ٣٢ سوناته للبيانو .

« سوناته كلمة ايطالية الاصل مشتقة من فعل سونارى ومعناه يسمع ، ومعنى الكلمة هو المسموعة أو القطعة الموسيقية التى نستمع اليها »[١] .

والسوناتة تأليف آلى يتكون من سلسلة الحان مرتبط بعضها ببعض ، وتتركب عادة من أربعة أجزاء موسيقية يفصلها بعضها عن بعض سكتات صغيرة ، ويختلف كل جزء منها فى صوته وايقاعه أو وزنه ، وتتبع السوناتة فى التأليف شروط فنية معينة بأن تبدأ الحركة الاولى بعزف سريع والحركة الثانية عزف بطىء والحركة الثالثة سريعة ، وربما يختلف هذا الترتيب ، أما بالنسبة للآلات العازفة فيمكن أن تعزفها آلة واحدة أو آلتان أو بضع آلات قليلة

ثالثا : خمس كونشرتو للبيانو والاوركسترا

رابعا : كونشرتو واحد للفيولينة والاوركسترا

---

(١) نفس المرجع السابق

« الكونشرتو كلمة لاتينية الاصل مشتقة من فعل (كونشرتارى) ومعناه المباراة أو التسابق أو التقابل ، ويقصد بمعنى الكلمة من الناحية الموسيقية ما كان يحدث عادة فى القرن السادس عشر وما قبله من قيام عدد من المغنين بالغناء على شكل مجموعات متقابلة أو متبادلة ، فمثلا يكون الغناء مرة بصوت رجالى ثم مرة أخرى بصوت نسائى ثم بالصوتين معا بهدف التلوين والتغيير »

والكونشرتو مؤلف موسيقى يبنى على نظام السوناتة وهو عبارة عن عزف على آلة موسيقية واحدة أو أكثر بمصاحبة الاوركسترا ، والكونشرتو أنواع :

١ - كونشرتو لآلة واحدة مع الاوركسترا
٢ - كونشرتو مزدوج وفيه تشترك آلتان بالعزف المنفرد بمصاحبة الاوركسترا
٣ - كونشرتو جروسو وهو الذى تشترك فيه مجموعة كاملة من آلات الاوركسترا بالعزف على التبادل كمجموعات الكمان والشيللو .

خامسا : ست عشرة رباعية وترى من موسيقى الحجرة

« الرباعية قطعة موسيقية تكتب لاربع آلات وتكون غالبا من آلتى كمان وفيولا وشيلو ، والرباعى الواحد يتألف من اربع حركات »

سادسا : اربع افتتاحيات مستقلة
سابعا : أوبرا واحدة باسم « فيديليو »
ثامنا : قداس واحد

نعود للحديث عن السيمفونيات التسع لبيتهوفن ، وهنا نذكر قول الدكتور حسين فوزى فى كتابه « الموسيقى السيمفونية » ان بيتهوفن تحرج فى كتابة سيمفونيته الاولى حتى بلغ الثلاثين من عمره بعد أن الف عددا من السوناتات المختلفة ، فليس تأليف السيمفونية بالامر الهين ، والسيمفونية هى معزوفة للاوركسترا تؤلف فى قالب السوناتة ، وتتبع ذات الاصول ، لكنها غنية فى التعبير بفضل المجموعات الاوركسترالية التى تمكن المؤلف الموسيقى من دقة التعبير والتصوير وعمل الاحساس .

لم تحظ السيمفونية الاولى لبيتهوفن باعجاب النقاد لانه حاول فيها محاكاة أستاذيه هايدن وموتسار ومن ثم فلم يأت بجديد فيها ، أما سيمفونيته الثانية فكانت ترقص فرحا وبهجة ورقة ، فى نفس الوقت الذى كان يعانى من الصمم الذى بدأ يحول حياته الى جحيم ومعاناة ، عجبا لهذا الفنان الذى يتألم ولكنه يقدم للآخرين البهجة والسعادة ومتعة الفن ، ربما كان يعوض آلامه ويعبر عن العالم الذى يود أن يعيش فيه .

السيمفونية الثالثة هى سيمفونية البطولة (ايرويكا) وهى كلمة مشتقة من لقب هيرو Hero بمعنى بطل ، وكان بيتهوفن شديد الاعجاب بنابليون الذى كان يقود معاركه فى ذاك الوقت دفاعا عن الجمهورية الفرنسية بعد قيام الثورة ولتوطيد مبادىء الحرية والاخاء والمساواة . ولشدة الاعجاب اهدى اليه هذه السيمفونية ، لكن الاعجاب سرعان ما تحول الى احتقار وسخط بفضل تتويج نابليون نفسه امبراطورا ، ورأى بيتهوفن أن بطله فى الحقيقة مجرد انسان عادى يجرى وراء السلطة والشهرة ، وبعد أن كتب الاهداء اسفل النوتة باسم نابليون أخذ يضرب بقلمه عليه حتى كادت النوتة تتمزق لولا أن خطفها منه أحد تلاميذه ، ثم غير الاهداء الى هذه العبارة « الى ذكرى بطل »

وتعتبر السيمفونية الثالثة من أهم أعمال بيتهوفن فى الدور الثانى من حياته الفنية ، والذى اتسم بالخروج عن المألوف فى التأليف الموسيقى والتعبير عن ذاته والتحول من الكلاسيكية الى الرومانتيكية المتحررة .

السيمفونية الرابعة أو الانشودة الغرامية ، وقد وصفها احد النقاد المعاصرين لها بأنها مليئة بالجنون والمرح والهدوء السماوى ، ولم يهتم مؤرخو بيتهوفن بهذه السيمفونية وربما يرجع ذلك لانها لا تصل لعظمة وقوة السيمفونية الثالثة أو الخامسة .

السيمفونية الخامسة ، ألفها بيتهوفن وهو فى عنفوان شبابه وعبقريته وفى الوقت نفسه كان فى قمة ألمه وخوفه من الصمم ، ولذلك فهى تعبر عن صراع

بين الانسان والقدر ، الصراع الذى يجب فى رأى فناننا أن ينتهى لمصلحة الانسان ضد القدر ولهذا سميت هذه السيمفونية بالقدر (Fate) وتبدأ فى حركاتها الاولى بثلاث ضربات قصيرة متلاحقة تتبعها ضربة رابعة طويلة ، وعن هذه الضربات قال بيتهوفن لصديقه « شندلر » ، هكذا يطرق القدر المنتصر على الابواب ، والطريف أن المخترع مورس اقتبس هذة الدقات والضربات فى آلة التلغراف لتدل على حرف (V) وهو أول حرف من الكلمة الانجليزية (فكتورى Victory) ومعناها النصر ، وفى الحركة الثالثة من هذه السيمفونية خرج بيتهوفن عن المألوف والمتبع فى ذلك الوقت ، اذ كانت الحركة الثالثة دائما فى أى سيمفونية تؤلف على نغمات الرقص الايقاعى (المينيوت) فجاء بنغمة جديدة هى (السكرتزو) ومعناها المرح والدعاية ، والسيمفونية تبدأ قوية منتصرة ثم يتخللها الصراع حتى تنتهى بنفس الانتصار على القدر ، وقد وصفها الفيلسوف (نيتشه) قائلا انها تحمل جميع مشاعر الانسانية السامية ، كما امتدحها الاديب الشاعر جوته .

السيمفونية السادسة الريفية :

أحب بيتهوفن الريف حيث جمال الطبيعة ، وصدق الناس ، وروعة الكون ، وعبر عن حبه ذلك فى رائعته السادسة أو سيمفونيته السادسة ، وحتى يستطيع ترجمة شعوره الفياض كاملا صادقا خرج عن المألوف وأخرج السيمفونية لاول مرة فى خمس حركات لا أربع كالمعتاد ، الحركة الاولى تعبر عن فرحة الوصول الى الريف ، والحركة الثانية جلسة على شاطىء البركة حيث تغريد الطيور وحفيف أوراق الاشجار وخرير المياه وهى صورة صوتية رائعة للريف ، والحركة الثالثة وصف حفل ريفى حيث يتجمع أهل الريف فى مرح ، وتصدح موسيقاهم البسيطة التى تبعث فى نفوسهم الفرحة والسعادة ، ووسط هذا الجو السعيد الفرح تأتى عاصفة قوية تغير الحال فتنتقل الى الحركة الرابعة التى ينجح فيها بيتهوفن فى التعبير عن شدة العاصفة بآلاته الموسيقية المختلفة ونغماته المرتعشة ، واخيرا الحركة الخامسة وفيها يناجى الراعى ربه شاكرا على مرور

الزوبعة بسلام وعودة الطبيعة الى هدوئها وجمالها وبهجتها .

السيمفونية السابعة ، واشتهرت بالراقصة لاهتمام المؤلف بالايقاع ، وهى مرحة تفيض هناء ونشوة على حد تعبير الدكتور حسين فوزى ، وتعتبر هذه السيمفونية من روائع ما كتب بيتهوفن ولذلك اختلف النقاد والمعاصرون فى تقبلها ، فمنهم من اعتبرها أعظم سيمفونية فى الوجود مثل الناقد (رتشارد ليونارد) وآخرون اعتبروها غلطة من غلطات بيتهوفن مثل الموسيقى (فيبر) الذى قال إن بيتهوفن يجب أن يلتحق بعد ذلك بمستشفى المجانين ، وحاول البعض البحث عن سبب يعلل به ضعف هذه السيمفونية فى نظرهم فقالوا : ان المؤلف كان فى حالة سكر بين ابان تأليفها ، وبالرغم من كل الآراء فقد لاقت السيمفونية اقبالا شديدا فى النمسا وعزفت ثلاث مرات خلال سنة واحدة ، وقال عنها الفنان الكبير « فاجنر » انها الهة راقصة ، وحقيقة فانها موسيقى راقصة بديعة تتعانق فيها النغمات وتتمايل الالحان فى خفة ورشاقة ، وتقف هذه السيمفونية فى شموخها وعظمتها فى صف السيمفونيتين الثالثة (البطولة) والخامسة (القدرية) .

السيمفونية الثامنة :

لم يهتم النقاد بهذه السيمفونية ، ربما لانها سيمفونية عادية وقد اعتاد المعاصرون أن يستمعوا لكل جديد مبتكر تجود به عبقرية بيتهوفن ، غير أن المهم فى هذه السيمفونية هو اصرار المؤلف على الاستمرار فى التأليف وشحذ عبقريته وموهبته وحبه للحياة وتمسكه بها ، فقد كتب هذه السيمفونية بعد أن تمكن الصمم من أذنيه ومع ذلك فقد عبر من خلالها عن البراءة والهدوء ورقة النسيم .

السيمفونية التاسعة :

هى احدى شوامخ بيتهوفن استغرق فى تأليفها اثنى عشر عاما وكعادته فى التجديد استخدم لاول مرة الكورال والاصوات البشرية فى السيمفونية ،

وتتكون من اربع حركات وجاء التجديد فى الحركة الاخيرة ، عندما اشتركت الاصوات البشرية على اختلاف طبقاتها فى انشاد قصيدة الفرح والسعادة للشاعر الالمانى شيللر .. تقول كلمات القصيدة :

كفوا أيها الصحاب عن هذا الانين
وارفعوا الصوت باللحن السعيد
لنعش كالشمس المشرقة مبتهجين
ولنسرع الخطا عبر الطريق
كالجنود البسلاء الظافرين
ابعثوا بالحب طاهرا صوب الملايين
وبقبلات السلام حول العالمين
اذ فوق هذا النجم المتألق
يوجد اله الخلق اجمعين
سحقا لكم أيها الكفار
كيف لا تؤمنون بالخالق العظيم

وقد لاقت تلك السيمفونية اعجاب الجمهور فالتهبت الاكف بالتصفيق وبحت الحناجر من هتاف النشوة والاعجاب ، ولكن بطلنا لم يستمع لهذا كله فقد قضى على سمعه ، ولاحظ احد اصدقائه شروده فقاده الى المسرح أمام الجماهير فشاهد بنفسه الافواه المتفرجة والايدى المصفقة ودمعت عيناه دموع الفرح ، كما انتشرت هذه السيمفونية انتشارا واسعا فى فينا وطلبتها لندن أيضا ، بل الحت لندن على بيتهوفن أن يسرع فى كتابة السيمفونية العاشرة ، ويقال إنه شرع فعلا فى تأليفها ، فكثيرا ما كان يتحدث عنها ، ولكن صحته الجسدية والنفسية لم تساعده على ذلك ، فاتجه لكتابة الرباعيات ، وهى آخر أعماله وروائعه .

وهكذا انتصر بيتهوفن على آلامه ومتاعبه وأمراضه وتجلت عبقريته فى أعماله

وخرج بموسيقاه – كما تقول الاستاذة بثينة فريد فى كتابها (عشرة من أساطين النغم) – عن طابع القرن الثامن عشر الكلاسيكى ، الى الاستقلال بالطابع الشخصى ، وهو ما نسميه بالرومانتيكية التى تتسم بانطلاق الحرية والخيال والتعبير عن العواطف والاحاسيس الشخصية ، والابداع فى استعمال الآلات كالتلوين الاوركسترالى ، وعلى يديه وصل عدد الاوركسترا الى ستين عازفا ، وهو ما يعتبر أوركسترا مثالية حتى الآن .

رابعا : حب ورحيل :

احب بيتهوفن الحياة بالرغم من كل شيء ، وأعطاها الكثير وهى التى لم تعطه شيئا ، بل بخلت عليه بأقل ما يمكن أن تمنحه اياه وهو الصحة ، وأحب كثيرات ولكنه لم يتزوج ، وأحب أبن أخيه ولكنه كان عاقا به ، الموسيقى وحدها هى التى اعترفت بجميله وخلدته ، فقد قضى عمره بين نغماتها وآلاتها باحثا عن الافضل والاحدث ، واستطاع فعلا أن يأتى بالجديد ويقدم للانسانية أروع الالحان ، وكان التأليف الموسيقى عنده جزءا مهما من حياته ، وضرورة من ضروريات وجوده كالشمس والهواء والماء والغذاء ، لذلك كان يشعر وهو يعد اللحن ويدرب الاوركسترا على عزفه كأنه فى محراب يتعبد ويصلى ، ومن هنا كانت ثورته العارمة اذا تأخر احد اللاعبين عن موعد التدريب ، واستطاع بيتهوفن أن يرفع من قيمة الفنان ويضعه فى المكانة اللائقة به ، فالفنان فى رأيه أعلى مرتبة من الانسان العادى ، بل هو صاحب رسالة فى الحياة ارتفع بها وارتفعت به فوق هامات البشر ، ولذلك يجب الا يتقدم عليه نبيل أو شريف فى حفل رسمى أو دعوة .

كان عام ١٨٢٦ عاما مليئا بالمتاعب والاضطرابات بالنسبة لبيتهوفن فبالرغم من الحب الكبير الذى كان يدخره لابن أخيه (كارل) الا أن الاخير كان يضيق ذرعا بمعاملة عمه التى تعتبره طفلا فى كل تصرفاته ، والتى تريد أن تفصله تماما عن أمه ، ومن هنا حاول كارل الانتحار فأطلق على نفسه

رصاصتين ولكنه أسعف بالعلاج ، وبعد شفائه أخذه بيتهوفن الى مزارع أخيه جون حتى يستعيد صحته كاملة ، وحدث فى أثناء عودتهما أن اضطرا الى المبيت فى حانة صغيرة غير مريحة ، فأصيب بيتهوفن بنزلة شعبية حادة اضطرته الى العودة الى مزرعة أخيه حتى يتم شفاؤه ، لكن الشفاء كان بعيد المنال ، وأراد فناننا أن يعود الى فينا لمواصلة الكفاح فلم يجد الا عربة أحد القرويين من باعة اللبن ليعود محمولا عليها مما أدى الى زيادة تدهور صحته وتعرضه للبرد القارس ، ومعاناته من النزلة الشعبية وآلام الكبد ايضا ، وطلب من ابن أخيه استدعاء أحد الاطباء لانقاذه من آلامه ، لكن كارل الذى كان يكره عمه تباطأ فى ذلك مما كان له أثره السيىء على صحة فناننا وبالرغم من ذلك كتب بيتهوفن وصيته وترك كل ما يملك لابن أخيه ، وبعد كتابة الوصية نظر الى من حوله قائلا :

« صفقوا .. صفقوا يارفاق فقد انتهت المهزلة »

فى اليوم الرابع والعشرين من مارس سنه ١٨٢٧ كان بيتهوفن يعانى من شدة المرض ووصلته هدية من أحد الناشرين عبارة عن صندوق من الخمر المعتق ، فنظر اليها وغمغم .... « ياللاسف لقد تأخر قليلا ... » وكانت هذه آخر كلماته ، بعدها ذهب فى غيبوبة لمدة ثلاثة أيام لم يفق منها حتى ودع الحياة ورحل عن عالمنا الذى أحبه ، وذلك فى الساعة الخامسة مساء اليوم السابع والعشرين من شهر مارس سنة ١٨٢٧ وتصادف أن هبت عاصفة هائلة ولف فينا صوت الرعد وانتشار البرق وهطول الثلوج مما دفع مؤرخى بيتهوفن الى الربط بين موته ورحيله وبين هبوب هذه العاصفة فى ذات اليوم ، فقالوا إن الطبيعة نفسها حزنت عليه وشاركت محبيه فى البكاء والانين .

شهدت فينا فى صباح اليوم الثلاثين من شهر مارس سنه ١٨٢٧ حركة غير عادية فقد تعطلت المدارس واستدعى الجنود لتنظيم سير موكب الجنازة الى الكنيسة ، واحتشد المودعون فى كل مكان حتى وصل عددهم الى ما يقرب من اثنين وعشرين الفا ، وسارت الجنازة فى هدوء يتفق وعظمة صاحبها . إنه

شعب يودع عبقريا من عباقرته أسهم فى اسعاد الانسانية جمعاء بموسيقاه .

وعجيب أن يقول بيتهوفن عن حياته إنها مهزلة ، فأبدا ما كانت مهزلة ، وانما كانت صراعا مع القدر وصبرا على الالام حتى الانتصار فهو القائل : « لاغالبن القدر دون أن احنى له هامتي .. » ولقد قدر العالم عبقريته ويكفى أن الكتب التى ألفت عنه تقارب فى عددها الكتب التى الفت عن الاشهر (نابليون بونابرت)

وعندى أن أسباب انتصار بيتهوفن ترجع الى عبقريته الفنية اللامعة وصبره الطويل ، وايمانه الشديد بالله عز وجل ، هذا الايمان الذى تجلى فى قداسه الوحيد الذى ظل يؤلفه فى خمس سنوات ، والذى يعبر فيه عن ايمانه وخشوعه وحبه لله ، الى درجة تقربه من التصوف .. وقبل موته اعترف للكاهن بخطاياه وتناول من الاسرار المقدسة متمما بذلك المراسم الدينية للانسان المسيحى .

ألبرت شفايتزر

الحب العظيم

أى نظرية فى القانون يجب أن
تنبثق من احترام الحياة وعلينا
أن نعيد تقرير حقوق الانسان
التى لا يجوز اهدارها على نفس
هذا المبدأ المهم ....

شفايتزر

★ الحب عطاء .. عطاء بلا حدود .. عطاء لا ينتظر الثمن .
★ الحب فناء المحب فى ذات المحبوب .
★ وهذا الرجل ترجم هذه المعانى فى حياته العملية .. احب الانسان واحترم الحياة بشتى ألوانها ، ولم يفرق فى احترامه لها بين الطفلة والزهرة والقطة .

★ انه الاديب واللاهوتى والفنان .. الطبيب الانسان الدكتور البرت شفايتزر الذى كانت حياته شمعة تحترق لتضىء حياة الناس وتملؤها بالصحة والسعادة والمبادىء والخير .

★ ولد البرت شفايتزر عام ١٨٧٥ فى اسرة سعيدة « الزاسية المانية » حيث تجاور المانيا فرنسا ، كان أبوه راعيا لكنيسة القرية اما أمه فكانت تعمل ليل نهار من أجل سعادة أفراد أسرتها .. ولهذا كان المرح والانطلاق السمة الغالبة على الاسرة ، وطبيعى أن يشب البرت على المرح حتى لقبه زملاوءه فى المدرسة بالضاحك و« الجنتلمان » وأحب الموسيقى وانكب على آلة البيانو حتى أتقن العزف عليها وهو فى الخامسة من عمره ، ثم تعلم العزف على الارغون وهو الآلة الموسيقية التى لا تخلو منها كنيسة ، وبرع أيضا فى هذا ، وشجعه والده على ميله الفنى فأحضر له مدرسا خاصا فى الموسيقى أفاده كثيرا فى تنمية موهبته .

★ وعلى الرغم من نبوغ البرت شفايتزر فى الموسيقى والعزف على آلتى البيانو والارغون الا أنه لم يظهر تفوقا فى سنوات الدراسة ، وحتى فى الموسيقى كان أحيانا يعزف وهو شارد الذهن فتخرج النغمات باهتة ضعيفة لا تعبر عن نفسها ، ولاحظ مدرسه الخصوصى هذا فوبخه وقال له أنه يسىء للمقطوعات الموسيقية الجميلة التى يعزفها .. ولكن البرت كان يحب الموسيقى فعلا فاستجمع قواه وعزف لمدرسه قطعة أعدها بنفسه وأظهر فيها كل امكاناته وبراعته وأحاسيسه مما دفع مدرسه للاعجاب به مرة أخرى ومساعدته على مزيد من المعرفة الموسيقية والتذوق الفنى .

★ فى طفولته كان البرت يتصرف كالكبار ، بل كانت روحه روح قديس أو راهب .. عرف منذ نعومة أظافره التسامح .. الزهد .. الحب .. الايثار .. المشاركة الوجدانية .. ولعل والده راعى الكنيسة استطاع أن يربيه تربية دينية صالحة فنشأ على حب هذه القيم وآمن بها وجعلها منهاج حياته .. حدث أن أختلف مع زميل له فى المدرسة يدعى جورج ، واشتد الخلاف واذا بالبرت الصغير يدعو زميله جورج للعراك خارج المدرسة .. وفعلا خرج الاثنان بعد الدراسة الى الحقول فأمسك البرت بخصمه وطرحه أرضا ، ونهض جورج من الارض وقال وهو ينظف ملابسه :

« انك أقوى منى ياألبرت شفايتزر لانك لم تعرف الجوع وتتناول يوميا أطباق الحساء ومالذ وطاب من الطعام أما أنا ففقير وهذا سبب ضعفى وهزال صحتى » .

★ وأصيب شفايتزر بالوجوم .. ولم يتكلم .. وكل ما فعله هو مساعدة زميله جورج على ترتيب ملابسه وكتبه .. ولاحظ جورج تأثر صديقه بكلماته فحاول ان يعتذر له ، ولكن شفايتزر ظل واجما ولم يتكلم .. وذهب الى بيته وجلس فى حجرته وحده .. كان يفكر فى كلمات صديقه ، وكان ضميره البكر يؤنبه على فعلته وضربه لجورج ، وعند المساء دعته والدته لكى يتناول طعام العشاء مع اخوته فجلس بينهم — شقيقان وثلاث شقيقات — ووضعت الام أمامه طبقا كبيرا من الحساء الساخن ، فتذكر على الفور كلمات زميله جورج ولم يستطع تناول العشاء فقام معتذرا لامه عن عدم قدرته على تناول العشاء — وكأى أم — حاولت والدته اجباره وتشجيعه على تناول الطعام دون جدوى .. كذلك حاولت معرفة السبب فلم تستطع .

★ وفى صباح يوم من أيام الاحد ، وهو يوم الذهاب للصلاة فى الكنيسة استعدت الاسرة للخروج وارتدى الجميع ملابس الشتاء وطلبت والدة شفايتزر منه ارتداء المعطف الذى ابتاعته خصيصا له ، فرفض ارتداءه حتى يصبح مثل زملائه الفقراء دون معطف ، وحاول والده اقناعه بضرورة ارتداءه وبخاصة

أن الطقس غاية فى البرودة ، فأصر على موقفه ورفضه ، وظل المعطف فى البيت عدة سنوات حتى أصبح صغيرا عليه لا يتناسب مع حجمه ونمو جسمه .

★ ذات يوم كان شفايتزر يمشى فى الشارع فشاهد حصانا مريضا يجر عربه ولان الحصان مريض وضعيف كان يمشى ببطء ولكن صاحبه لم يقدر مرضه فأخذ ينهال عليه بالسياط حتى يسرع الخطى .. ولم ينم طفلنا الصغير تلك الليله من الالم النفسى .

★ وخرج شفايتزر مع أحد اصدقائه لصيد الطيور الملونه التى يحبها وبعد أن اصطاد طائرا جميلا تسرب الى أذنه رنين أجراس الكنيسة فتذكر على الفور احدى الوصايا العشر فى الانجيل التى تقول « لاتقتل » وهم الى صيده وأطلق سراحه وشعر بأن روحه ترفرف مع جناحى الطائر الذى أطلقه ، ومنذ تلك اللحظة قرر أن لا يؤذى أى حيوان أو يتعرض له .

★ كانت هذه الاحداث السريعة الارهاصات الاولى لالبرت شفايتزر الإنسان الذى ينتظره مستقبل كبير فى العمل من أجل الإنسان فى كل مكان ، ومن أجل حب الحياة متمثلة فى الإنسان والحيوان والنبات .

★ عندما بلغ البرت شفايتزر الثامنة عشرة من عمره أضطر الى العيش مع عمه فى بلدة أخرى قريبة من بلدته ، وذلك حتى يتم دراسته الثانوية ، وكان هادئا غير مهتم بأناقته أو ملبسه .. وعندما اقترب موعد الامتحان طلبت منه زوجة عمه أن يذهب لابيه لاحضار الملابس الخاصة بالامتحان (اليونيفورم) وكانت هذه الملابس مجرد جاكت أسود وبنطلون أسود مخطط فلم يهتم صاحبنا وقال لها : أنا أملك جاكت أسود أما البنطلون فيمكن أستخدام بنطلون عمى أثناء الامتحان ، لأنى لا أريد أن أثقل على والدى واكلفه الكثير فاخوانى يحتاجون لملابس كثيرة وهذا يكفيه .. وشعرت زوجة عمه بتقدير كبير لهذا الفتى الذى يفضل اخوته على نفسه ، ويحاول أن يخفف على والده كثرة المصاريف . أى ايثار هذا وتفكير سديد من فتى صغير ؟ .. ووافقت زوجة عمه على استخدامه

لبنطلون عمه .. وفى صباح يوم الامتحان ارتدى شفايتزر بنطلون عمه و لم يكن مناسبا له بل كان واسعا وقصيرا ، و لم يهتم وذهب الى الامتحان فضحك زملاءه من منظره وأخذوا يتهكمون عليه ، ولكنه أدى الامتحان بنجاح واستعد للالتحاق بجامعة ستراسبورج .

* وفى خريف نفس العام ١٨٩٣ زار شفايتزر باريس لمشاهدة أشهر أرغون هناك ومقابلة الفنان المعروف « ويدور » وفعلا قابله واستمع الاخير لعزفه وشجعه بل أبدى استعداده ليتتلمذ شفايتزر على يده ، وأعطاه دروسا فى العزف ، ونشأت بينهما صداقة وطيدة استمرت طوال حياتهما .

* بعد الانتهاء من دراسته الثانوية التحق شفايتزر بجامعة ستراسبورج لدراسة علم الالهيات « اللاهوت » وحقق بذلك رغبة والديه ، ونال الشهادة الجامعية فى هذا التخصص ، غير أنه أخذ المسائل والمشاكل الدينية بالعقل وليس بالايمان ومن هنا كان يناقش ويحاور ويرفض الحقائق التى تتعارض مع العقل ، وقد أدى به ذلك الى تأليف كتاب عن السيد المسيح تعرض فيه لجوانب كثيرة من شخصيته و لم يقبل من السيد المسيح الا دعوته الاخلاقية الانسانية ورفض الجانب اللاهوتى ، وقد استاء الكثير من القراء من تناوله لشخصية السيد المسيح بهذه الطريقة .

* تفرغ شفايتزر بعد حصوله على الدرجة العلمية الجامعية من جامعة ستراسبورج للعمل فى اكثر من مجال ، فقد أخذ يؤلف الكتب ، فكتب عن السيد المسيح ، وعن بولس الرسول فيلسوف المسيحية ، وعن الموسيقار الالمانى الاشهر باخ ، وعن فلسفة الحضارة ، وعن الموسيقى التى عشقها ، كما كتب فى الفلسفة والادب .. والاجتماع .. وبجانب الكتابة عمل بالعزف على الارغون ، وكانت الكنائس تدعوه فى حفلاتها لشهرته وبراعته فى العزف ، وقد ربح كثيرا من ذلك ، كذلك كان يعمل أستاذا بالجامعة وراعيا للكنيسة التى فى قريته .. ومع كل هذه الاعمال لم يكن نجمنا مقتنعا بما يفعل فهو يريد

أن يخدم الناس بطريقة أكثر عمليه من مجرد الوعظ والعزف والكتابة ، وظل منذ تخرجه من الجامعة وهو فى العشرين ربيعا من عمره الى أن بلغ الثلاثين تقريبا يمارس هذه الاعمال متحليا بأخلاقه التى نشأ عليها وآمن بها .. التسامح .. الايثار .. حب الناس .. احترام الحياة .

* وفى صباح أحد الايام وبينما شفايتزر يجلس فى مكتبه اذ تقع عيناه على مقال فى الصحيفة يقول : « هناك أشخاص كثيرون يعانون من متاعب كثيرة فى الحياة ، ومن أمراض شتى وبخاصة فى وسط أفريقيا ، وهؤلاء يحتاجون الى أطباء ودواء ولكنهم لا يجدون ... » .

* ومنذ تلك اللحظة شعر شفايتزر أن هذه دعوة خاصة له يحقق ماكان يفكر فيه دائما وهو خدمة الإنسان فى أى مكان ، ولكن كيف يذهب إلى هؤلاء المرضى وهو الاديب ورجل الدين والفلسفة ؟ ... هل يكتفى بوعظهم وارشادهم ؟ ... وقرر أن يلتحق بكلية الطب وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره حتى يستطيع الذهاب الى أفريقيا وخدمة المرضى ، وبالفعل ترك ستراسبورج واتجه الى باريس حيث التحق بكلية الطب هناك .

ولم تكن دراسة الطب بالشيء السهل على شفايتزر ولكنه جاهد وسهر من أجل تحقيق هدفه ، وبعد أربع سنوات أصبح طبيبا معترفا به فأخذ يعد نفسه للسفر الى أفريقيا وتحقيق حلمه فى معالجة المرضى والعيش بينهم ، وحتى يحقق كل هدفه أخذ يجمع المال من أصدقائه وعن طريق العزف على الاورج فى الكنائس – وقد اشتهر بذلك – والقاء المحاضرات الدينية والادبية وتأليف الكتب ، أى أنه استغل كل مواهبه وعمل كثيرا من أجل السفر ، ومن حسن حظه أن تعرف على فتاة اتفقت معه فى الهدف ووقفت بجانبه وتعلمت التمريض حتى تساعده فتزوجها وسافرا معا فى ١٩١٣ الى شاطىء أفريقيا الغربى بحرا ، وبمجرد وصولهما الى مدينة (لا مبارنيه) فى السنغال الفرنسية ، حتى وفد عليهم كثير من المرضى وطالبى العلاج ، وفى البداية كان الدكتور شفايتزر وزوجته يعالجان المرضى فى العراء ، ثم أستطاع أن يشترى عشة صغيرة رتبها

ووضع فيها صناديق الدواء الذى أحضره معه ، مع بعض الأجهزة الطبية المتواضعة ، وهناك تعرف على شخص يدعى جوزيف كان يعمل طباخا عند رجل أبيض ، وكان لديه دراية بحوالى ثمانى لغات ، ووجد شفايتزر فى جوزيف الشخص الذى يمكن أن يساعده ويعتمد عليه ، فعرض عليه العمل معه ، ووافق الاخير وأصبح اليد اليمنى للدكتور شفايتزر ، يعد له الدواء ويصنفه ، وينظم المرضى ، ويترجم له النصوص التى لا يعرفها ، وعاش جوزيف مع شفايتزر وزوجته فترة طويلة يعمل معهما فى خدمة المرضى ...

* كان شفايتزر يعمل ليل نهار من أجل المرضى الذين جاءوا اليه من كل مكان ، ولم يشعر بالتعب أو الارهاق فان حبه للناس ملاء قلبه وقلب زوجته ، وفى خلال تسعة أشهر أستطاع أن يعالج ما يقرب من الفى مريض ، وأحبه الناس وأطلقوا عليه لقب « أوجندا » أى الساحر ، فقد وجدوا فيه انسانا غير عادى يسهر على راحتهم ، ويشفى أمراضهم ويجرى لهم العمليات الناجحة ، فهو أقرب إلى الساحر منه الى الانسان العادى ، وقد زاد حبهم له وارتباطهم به أنه لا ينتظر ثمنا لهذا الجهد الكبير والحب العظيم الذى جعله يترك أورروبا المتحضرة ليعيش معهم تحت شمس أفريقيا الحارقة .

* ظل شفايتزر يعمل جاهدا لتحويل العشة الصغيرة التى يعالج فيها مرضاه إلى مستشفى كبير ، وبعد أن قامت الحرب العالمية الأولى ، وبالضبط فى منتصف صيف سنه ١٩١٦ وصل مجموعة من الجنود الفرنسيين إلى مدينة « لا مبارنية » حيث يقيم شفايتزر وطلبوا منه الالتزام ببيته وعدم الخروج منه لانه من أصل ألمانى ويجب أن يسجن وزوجته ، ونفذ شفايتزر أوامرهم فى البداية لكنه وجد أن ذلك سيحرمه من علاج مرضاه ، ثم أنه يعمل فى أفريقيا وليس فى أوربا ومن هنا استمر فى عمله ، وشعر الافريقيون بمعاناته فما كان منهم الا أن هاجموا الجنود وألقوا عليهم بالحجارة ... وكانت هذه مظاهرة حب لشفايتزر ورد الجميل له .. وخلال الحرب كان العمل بالمستشفى هادئا وقليلا ووجد شفايتزر فسحة من الوقت ليختلى بنفسه ويتأمل الحياة ويكتب عن فلسفته فيها ، وهو

ما ضمنه كتابه القيم تحت عنوان « فلسفة الحضارة » الذى ترجمه إلى اللغة العربية الاستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى وراجعه شيخ الفلاسفة الاستاذ الدكتور زكى نجيب محمود ..
يقول شفايتزر إن إرادة الحياة هى أساس قيام الحضارة ، وأن العالم للاسف يغرق مثل قارب صغير فى نهر كبير ، ولا يمكن أن يعيش الإنسان من أجل تحطيم الإنسان .. فالحياة حلوة مقدسة ولا بد للانسان أن يحياها ويحافظ عليها من خلال احترامه ومحافظته لحياة الاخرين سواء كانوا بشرا أم نباتا أم حيوانا .. لا بد للإنسان أن يحترم كل المخلوقات الموجودة فى العالم .. وفى هذا احترام لنفسه ووجوده .

★ فى خريف سنه ١٩١٧ صدر أمر بالقبض على شفايتزر وزوجته وترحيله إلى فرنسا لدخول السجن ، ونفذ صاحبنا الامر ورحل عن أفريقيا بحراً إلى فرنسا حيث دخل السجن فعلا .. ولم ينس حبه للناس أو يتخلى عن فلسفته بل كان داخل السجن الطبيب النفسى والجسدى للمسجونين ، فالتفوا حوله وأفضوا له بمشاكلهم وكان يحلها بقدر استطاعته .. ولم يستمر كثيرا فى السجن بل أفرج عنه فى الربيع التالى .

كانت شهرة صاحبنا تلف البلاد وتسبقه أينما ذهب فهو طبيب وأديب ولاهوتى وموسيقى .. وعرض عليه أن يعمل أستاذا بجامعة سويسرا فرفض .. ومرة ثانية أخذ يلقى المحاضرات ويعزف على الارغون فى الحفلات الكبيرة لجمع التبرعات من أجل اخوته الافارقه الذين يعانون من المرض والفقر ، وبعد احدى عشرة سنة عاد شفايتزر إلى أفريقيا . ولم تستطع زوجته مرافقته فى هذه المرة فقد اعتلت صحتها من المرة الاولى .. ورافقه طبيب شاب من تلاميذه النابهين الذين آمنوا برسالته .

وعندما وصلا إلى مركز نشاطهما فى مدينة لا مبارنيه وجدا أطلالا فقط لما كان شفايتزر قد أعده فى المرة السابقة ، ولم ييأس صاحبنا بل أعاد كل

شيء على ما كان عليه ، وبمجرد انتشار خبر وصوله هرع المرضى والمحبون اليه طمعا فى حبه وكرمه وإنسانيته .. وظل عبقرينا الانسان يعمل حتى وصل عدد الاسرة فى مستشفاه الخاص سنه ١٩٤٧ الى ثلاثمائة وخمسين سريرا ، ولما كان مرض البرص منتشراً أكثر من غيره ، فقد خصص قرية خاصة لمرضى الجزام حتى يعزلهم عن غيرهم ويمنع انتشار العدوى ، وفى نفس الوقت يهتم بهم ويرعاهم .

* وفى سنواته الاخيرة كان شفايتزر يقسم وقته بين عمله فى أفريقيا وأسفاره إلى أوروبا ، لكن سعادته كانت تكتمل عندما يجلس إلى مرضاه فى أفريقيا ، فقد كان صديقا محبا للزنوج حاول أن يثبت للافارقه أن هناك وجها آخر لاوربا غير وجه الاستعمار البغيض هو وجه الاوربى المتحضر الإنسان الذى كان يمثله هو ، وقد استطاع أن يجعل من مدينة لا مبارنيه فى غرب أفريقيا مركزا للخدمات الطبية لكل المدن والقرى المجاورة ، ومع أنه كان ينتقل من أفريقيا إلى أوربا إلا أنه رحل عن عالمنا فى عام ١٩٦٥ وهو فى مدينة لا مبارنيه التى أحبها وأحبته وقضى فيها أربعين سنة فى خدمة أصدقائه الزنوج حتى فقد بصره فى النهاية .

* وكان من الطبيعى أن يحصل الطبيب الإنسان ألبرت شفايتزر على عدة جوائز أهمها جائزة نوبل للسلام سنه ١٩٥٢ . وبرحيله فقد العالم رجلا عظيما قلما يجود به الزمان ... رجلا عرف معنى الحب العظيم والتضحية الحقيقية .. وهزم اليأس من ظلم الإنسان لاخيه الانسان .. وفتح آفاق الامل فى حياة خالية من الاثرة والانانية مليئة بالحب والايثار والعطاء .

طه حسين

المفكر الثائر

انا قلق دائما ، مقلق دائما
ساخط دائما ، مثير للسخط
من حولى ،،،

« طه حسين »

تملكتنى حيرة شديدة وأنا أختار شخصية الدكتور طه حسين لتكون احدى شخصيات هذا الكتاب ، ووقفت كثيرا أمام عميد الأدب العربى ، هل أكتب عنه فصلا فى هذا الكتاب الصغير ؟ وهو الشخصية المعطاءة التى أثرت حياتنا الأدبية والفنية أكثر من نصف قرن من الزمان ولا يزال عطاؤها حتى الآن ، على الرغم من رحيله واختفائه من على مسرح الحياة .. وهل أستطيع أن أوفيه حقه بهذه العجالة القصيرة التى يتضمنها هذا الفصل ؟ ثم هل يمكن فى نفس الوقت أن أكتب عن العباقرة الذين هزموا اليأس خلال مسيرتنا الإنسانية دون أن أكتب عن طه حسين ابن أرضنا الطيبة ، الكفيف الذى أضاء الطريق أمام ملايين المصريين والعرب والمستعربين

★ المعادلة جد صعبة

★ فلأحاول الكتابة عن ملامح هذه الشخصية الفذة .. كيف هزمت اليأس ، وكيف شقت طريقها فى الحياة وكيف تربعت على عرش الادب ؟؟
وما أعطت لحياتنا الثقافية ؟

★ ولد طه سنه ألف وثمانمائة وتسع وثمانين فى « عزبه الكيلو » وهى من أعمال مغاغة محافظة المنيا فى صعيد مصر ، وكان أبوه حسين سلامة على موظفا بشركة السكر ، ورب أسرة تعيش فى حال متوسطة من العيش ، ومن المصادفات والنوادر أن تشهد هذه السنه نفسها مولد مجموعة من العباقرة الذين خدموا الإنسانية فى مجالات شتى خلال النصف الاول من القرن العشرين مثل الكاتب المصرى العملاق عباس محود العقاد ، والفنان الإنجليزى البارع شارلى شابلن ، وأول رئيس لجمهورية الهند بعد الاستقلال جواهرلال نهرو ، والفيلسوف الألمانى الوجودى مارتن هيدجر ، المؤرخ البريطانى المعروف أرنولد توينبى ، والشاعر ميخائيل نعيمه وابراهيم عبد القادر المازنى . ويقف على الجانب الآخر مشعل شرارة الحرب العالمية الثانية أدولف هتلر التى كانت نكبة على الإنسانية .

ظلت طفولة طه عادية إلى أن أصيب وهو فى السادسة بمرض الرمد الصديدى فى عينيه ، ولم تفلح محاولات حلاق القرية الساذجة وقتذاك فى

شفائه ، وأدى الجهل والاهمال إلى أن يفقد الطفل طه بصره ويصبح ضريرا ، وقد كان لذلك أثره العميق فى حياة طه ، كان فى أول عهده بالعمى يشعر بحزن صامت ، كان يخفية بين ضلوعه فكان اذا سمع أخوته يتحادثون ويصفون مالا علم له به ، أدرك أنهم يرون ما لا يرى وكان مما يبعث فى نفسه الحسرة والاسى أنه لم يكن قادرا على مشاركة اخوته فى الوان اللعب والعبث التى يفضلها الاطفال الذين هم فى مثل سنه ، فانصرف إلى لون آخر من ألوان اللهو هو الاستماع إلى القصص والاحاديث وشاعر الربابة ، وما أن بلغ الفتى طه التاسعة من عمره حتى كان قد وعى من الاغانى والتعديد - ذكر النساء لمحاسن موتاهن - والقصص ، وشعر الهلاليين والزناتيين ، والاوراد ، والادعية ، وأخبار عنترة والظاهر بيبرس ، وأخبار الانبياء والنساك والصالحين ، كما كان يترنم بأناشيد الصوفية التى حفظ منها الكثير ، هذا فضلا عت تلاوته الكتاب الحكيم بعد أن يحفظ سورة وآياته قدراً بعد آخر حتى حفظه كله . ويبدو أن حفظ القرآن الكريم لم يكن متقنا فأعاد حفظه مرة ومرة على . « سيدنا » فى الكتّاب ، ومنذ حفظ طه القرآن الكريم أصبح يلقب بالشيخ ، فالعا ة أن من حفظ القرآن فهو شيخ مهما تكن سنه . دعاه أبوه شيخا ، ودعته أمه شيخا ، وتعود سيدنا كذلك أن يدعوه شيخا ، أما هو فقد أعجبه هذا اللفظ فى أول الامر ، ولكنه كان ينتظر شيئا آخر من مظاهر المكافأة والتشجيع : كان ينتظر أن يكون شيخا حقا ، فيتخذ العمامة والجبة والقفطان ، وما هى الا أيام حتى سئم لقب الشيخ وكره أن يدعى به .

* ومن الطريف أن الصبى طه أهتم بعد ذلك - بجانب ما اهتم به - بشيئين اهتماما خاصا وهما السحر والتصوف ، ووجد بينهما ارتباطا كبيرا ، ولم يجد فرقا بين الساحر والصوفى الا أن الاول يتصل بالشياطين وأن الثانى يتصل بالملائكة ، وانكب صاحبنا على سماع كل ما يتصل بهذه وبغيرها من أخبار الفتوح والغزوات ، ثم قصص المولد النبوى ، ومجموعات من الشعر الصوفى ، ثم كتبا فى الوعظ والارشاد ، وأخرى فى عجائب الاخبار وقصص الابطال .

* كان من الطبيعى أن يفكر الشيخ حسين سلامة والد طه فى مستقبل ابنه

المكفوف وأهتدى إلى أن يرسله مع أخيه ليدرس فى الازهر بالقاهرة ويصبح شيخا حقيقيا ، وأخذ الصبى ينتظر الوقت الذى يسافر فيه إلى القاهرة ليذهب مع أخيه إلى الازهر ، واشترط أخوه عليه أن يحفظ « ألفية ابن مالك » ويقرأ أجزاء من كتاب « مجموع المتون » ، ولا شك أن حفظ طه للقرآن الكريم فى هذه السن المبكرة قد نمى لديه قوة الحفظ أضفت الى أثر الرغبة الكائنه فى نفسه ليهيىء نفسه للازهر .

* وجاء اليوم الموعود الذى ينتظره الشيخ طه ، وهو يوم السفر إلى القاهرة واستطاع الصبى أن يتكلف الابتسام وهو يودع والديه وأخوته مع ما كان يعتصر قلبه من حزن على أخية الذى قضى نحبه فى ريعان الشباب شهيدا فى ميدان مقاومة وباء الهيضة (الكوليرا) ذلك الاخ الحبيب الذى كان من المفروض أن يكون معه فى القاهرة لاكمال دراسة الطب ، وانطلق القطار إلى القاهرة ، وتعال نسمع طه حسين يقدم لنا نفسه وهوفى القاهرة لاول مرة ، فى الجزء الاول من رائعة « الايام » :

* « عرفته فى الثالثة من عمره حين أرسل إلى القاهرة ليختلف إلى دروس العلم فى الازهر ، ان كان فى ذلك الوقت لصبى جد وعمل . كان نحيفا شاحب اللون ، مهمل الزى ، أقرب إلى الفقر منه الى الغنى ، تقتحمه العين اقتحاما - أى تحتقره - فى عباءته القذرة ، وطاقيته التى استحال بياضها إلى سواد قاتم وفى هذا القميص الذى يبين من تحته عباءته ، وقد اتخذ الوانا مختلفة من كثرة ما سقط عليه من الطعام ، وفى نعليه البالتين المرقعتين . تقتحمه العين فى هذا كله ، ولكنها تبتسم له حين تراه على ما هو عليه من حاله رثه وبصر مكفوف ، واضح الجبين ، مبتسم الثغر ، مسرعا مع قائده إلى الازهر ، لا تختلف خطاه ، ولا يتردد فى مشيئته ، ولا تظهر على وجهه هذه الظلمة التى تغشى عادة وجوه المكفوفين ، تقتحمه العين ولكنها تبتسم له وتلحظه فى شىء من الرفق ، حين تراه فى حلقة الدرس مصغيا كله إلى الشيخ يلتهم كلامه التهاما ، مبتسما مع ذلك لا متألما ولا متبرما ولا مظهرا ميلا إلى لهو ، على حين يلهو الصبيان

من حوله أو يشرئبون إلى اللهو ..

★ هكذا يصف لنا عميد الادب العربى حياة الصبا وكيف جاء إلى القاهرة ليدرس فى الازهر ؟ ويشرح لنا بعد ذلك ما تحمله فى سبيل الدرس والعلم من حرمان فيقول فى موضع آخر :

★ « عرفته ينفق اليوم والاسبوع والشهر والسنه لايأكل الا لونا واحد ، يأخذ منه حظة فى الصباح ، ويأخذ منه حظة فى المساء ، لاشاكياً ولا متبرما ولا متجلداً ولا مفكراً فى حاله خليقة بالشكوى .. لقد كان ينفق الاسبوع والشهر لا يعيش إلا على خبز الازهر ، وويل للازهريين من خبز الازهر . إن كانوا ليجدون فيه ضروبا من القش وألوانا من الحصى وفنونا من الحشرات .. وكان ينفق الاسبوع والشهر والاشهر لا يغمس هذا الخبز الا فى العسل الاسود .. »

★ كان الشيخ طه سعيدا بحياته فى القاهرة ودراسته فى الازهر على الرغم من الحرمان والمضايقات الكثيرة ، وكان جادا مبتسما للحياة والدروس ، بل كان يريد أن يلقى نفسه فى هذا البحر فيشرب منه ما شاء الله له أن يشرب ثم يموت فيه غرقا ، وعلى حد قوله فى الجزء الثانى من الايام :

★ « أى موت أحب إلى الرجل النبيل من هذا الموت الذى يأتيه من العلم ويأتيه وهو غرق فى العلم ! .. »

★ بدا الازهر يصقل شخصية صاحبنا ، وفطن إلى بعض المفاهيم الدينيه الخاطئة فى الريف ، وعند عودته أثناء العطلة الصيفية ، شارك فى المناقشات مع والده ، وسيدنا وبخاصة عندما وجد والده يقرأ كتاب « دلائل الخيرات » فقال له : تعلمت فى الازهر أن كثيرا مما تقرأه فى هذا الكتاب حرام يضر ولا ينفع ، « فما ينبغى أن يتوسل إنسان بالانبياء ولا بالاولياء ، وما ينبغى أن يكون بين الله وبين الناس واسطة ، وانما هذا لون من الوثنية .. »

★ وغضب الشيخ حسين من ولده طه غضبا شديدا ، ووبخه وهدده ان عاد

لهذا الكلام فسيحرمه من الذهاب إلى الأزهر ويحبسه فى القرية .. ومع ضيق الشيخ بنقد ابنه له إلا أنه فى نفس الوقت حمل له شعورا بالاعجاب ، بل كان يغريه ويدفعه إليه أحيانا .

واستطاع طه أن يخرج من عزلته ويناقش الجميع ويعبر عن رأيه فى شجاعه مهما كان محاوره وانتزع اعتراف أهل القرية والمدينة به ، وتغير مكانه فى الاسرة .

* ولعل هذه هى الارهاصات الاولى لطه حسين الثائر دائما .
* الثائر على تقاليد القرية البالية .
* الثائر على المفاهيم الخاطئة للدين .
* الثائر على الاساليب القديمة الجامدة فى اللغة .
* الثائر من أجل تحرير المرأة المصرية والعربية .
* الثائر من أجل استقلال الوطن وحريته .
* الثائر على الجهل والامية .

* استحق الشيخ طه فى هذا الوقت أن يقال عنه وهو مازال فى هذه السن المبكرة أنه ملأ الدنيا وشغل الناس ، وكان يحب عطلة الصيف حتى يعود إلى القريه وينعم بطيباتها ، ويلتقى بشباب الاسرة ويفرغ لنفسه فيفكر ويخلو إلى اخوته فيقرأ ، وما أكثر ما كان يقرأ ، وما أشد تنوعه وأعظم فائدته ، كان يقبل مع أخوته وشباب الاسرة على القصص الشعبى فيغرقون فى ألف ليلة وليلة ، أو فى قصص عنترة وسيف بن ذى يزن ، وكانوا يقرؤن مقالات جورجى زيدان فى الهلال ، ومقالات يعقوب صروف فى المقتطف وترجمات فتحى زغلول عن الفرنسية ، وكتب الشيخ الامام محمد عبده وكتب قاسم أمين ، ووجد طه وأصدقاؤه فى هذه الكتب والمقالات من المتاع واللذة أضعاف ما كانوا يجدون فى كتبهم الدراسية ، وساعدت هذه القراءات بجانب الدراسة فى الازهر على اتساع مدارك طه وتفتيق ذهنه ، وأصبح عقله كا دائرة معارف ، ومن ثم بدأ يتبرم بأساليب التعليم وموضوعات الدراسة بالازهر ، ووجد فيها

جمودا يحتاج لثورة من أجل التجديد والانطلاق ، ويشاء القدر أن تفتح فى هذا العام (ألف وتسعمائة وثمانية) أول جامعة مصرية أهلية ، فيهرع طه الى مدرجاتها ليستمع الى محاضرات ودروس الاساتذة والمستشرقين ، ولم ينقطع عن الازهر ، بل كان يذهب الى دروس الازهر مصبحا والى دروس الجامعة مسيا . واذا هو يجد للحياة طعما جديدا ، واذا هو يتصل ببيئة جديدة وبأساتذة لا سبيل الى الموازنه بينهم وبين أساتذته فى الازهر .

فهذا أحمد زكى بك يبدأ الدرس بهذه الكلمات التى لم يسمعها طه من قبل .. « أيها السادة » .. أحييكم بتحية الاسلام فأقول السلام عليكم ورحمة الله وذاك استاذ آخر يبدأ الدرس بكلمات من عنده وبأسلوبه الخاص ، ولم يقرأ فى كتاب كما كان يفعل شيوخ الازهر ، وارتبطت الجامعة فى ذهنه بالحرية والاستقلال واحترام الطلبة ، وبدأ اهتمامه بالازهر يفتر ، وقضى وقته بعد ذلك فى دار الكتب صباحا وفى الجامعة مساء ، ثم تعرف على اساتذة اجلاء ساعدوه على البحث والدراسة ، بل وعلى الكتابة والنقد ، من هؤلاء الأستاذ لطفى السيد مدير « الجريدة » والشيخ عبد العزيز جاويش والشيخ المرصفى ، وبدأ طه يكتب فى الادب والنقد ليشبع موهبته وهوايته ، ولم يكن له مدرسة واحدة فى الكتابة ابان تلك الفترة البدائية وانما كان موزعا بين مدرستين فى الكتابة احداهما مدرسة الاعتدال الذى علمه اياه الاستاذ لطفى السيد ، والاخرى مدرسة الغلو والاسراف الذى كان يشجعه عليه الشيخ عبد العزيز جاويش ، وعلى اى حال فلم يكد طه يأخذ فى الكتابة حتى عرف بطول اللسان والاقدام على ألوان من النقد ، قلما كان الشباب يقدمون عليها فى تلك الايام ، وطول اللسان هو الذى قطع الصلة قطعا حاسما بينه وبين الازهر ، واصبح طه كاتبا بفضل موهبته ودراساته وقراءاته وتشجيع اساتذته له ، وظل يكتب عشرة اعوام دون ان يكسب من الكتابة شيئا ، وحتى كتابة الاول عن ابى العلاء نشر دون ان يفيد صاحبنا من نشره قليلا أو كثيرا .

ومع ذلك كان صدور الكتاب ارضاء لغروره واحتراما لشخصه .

★ وقد أحب طه حسين أبا العلاء وانكب على دراسته وبخاصة أن الاخير كان يعانى من كف البصر أيضا فاتخذ منه طه نموذجا له فى النجاح والشهرة ، وفكر طه فى عمل بحث عن هذا الشاعر الفحل ليتقدم به لنيل درجة الدكتوراه من جامعة القاهرة ، وبالفعل أتم الرسالة وحصل على أول درجة دكتوراه تمنحها الجامعة المصرية ١٩١٤ وكان تقديره جيد جدا .

★ فى هذه الاثناء كانت الأديبة مى زيادة تقيم صالونها الادبى المعروف الذى يجتمع فيه نجوم الأدب والفن ، وقد طلبت قراءة رسالة طه عن ذكرى أبى العلاء ، وعرف طه ذلك فسر سرورا بالغا ، ثم اصطحبه أستاذه لطفى السيد الى صالون مى فلم يصدق نفسه ، وكانت فرحته كبيرة وهى تناقشه فى رسالته وتثنى عليه ، كما استمع الى بعض من انتاجها الادبى وعبر لها عن اعجابه ، وكانت لمى مكانة خاصة فى نفس وعقل طه حسين .

★ عشق طه الأدب وأحب العلم واستولت على نفسه طموحات كثيرة وأخذ يحلم بأن يكمل دراسته فى الخارج ، وماذا يمنعه من ذلك ؟ وبدأ يتعلم اللغة الفرنسية حتى يطل منها على أدب فرنسا ويقرأ للأسماء اللامعة التى طالما داعبت خياله وفكره .. « لامارتين » « الفريد دى موسيه » .. « شاتوبريان » .. « الفريد دى ڤينى » وغيرهم . واستطاع طه أن يفهم اللغة الفرنسية عن طريق صديق له يدعى محمود سليمان ، والطريف أن طه تعلم الفرنسية على يد صديقه هذا مجانا مقابل أن يعلمه طه قواعد اللغة العربية فكانت المنفعة متبادلة وأشبه بالمقايضة التى كان الناس يمارسونها فى التجارة ذاك الوقت .

★ وفى ذات يوم قرأ صاحبنا اعلانا فى الصحف من الجامعة عن وجود بعثتين للدراسة فى فرنسا فى موضوعين هما :

التاريخ والجغرافيا .. وشعر أن الفرصة جاءته وأنه لابد أن يكون واحدا من الاثنين ، وكتب الى رئيس الجامعة المصرية خطابا يعبر فيه عن حرصه وأمنيته أن يسافر الى فرنسا لدراسة التاريخ ، وعلى الرغم من الصعوبات التى قابلته

إلا أنه فاز بالبعثة وحقق أمنيته فى السفر الى اوربا وبخاصة فرنسا بلاد النور والمعرفة فى ١٩١٤ .

★ لم تكن الحياة فى فرنسا بعامة والدراسة بخاصة أمرا سهلا ميسورا فأن صاحبنا طه عانى فى البداية من صعوبات كثيرة ، أهمها عدم اتقانه للغة الفرنسية ، وضعف امكاناته المادية ، وشعوره بأنه كالطائر الحبيس ، وعندما قدم أول أبحاثه وكان عن الحياة الحزبية فى فرنسا بعد سقوط نابليون قال له أستاذه : —
ان البحث سطحى لا يستحق النقد مما أحزن طه وضايقه ، وأهتم طه بأتقان الفرنسية حتى أجادها ، وكان يفضل السماع على القراءة عن طريق أصابعه وهى المعروفة بطريقة (برايل) ولذلك احتاج لمن يقرأ له ويوفر عليه الوقت ، وهيأله قدره السعيد فتاة تقرأ له ما يريد ، وعندما سمعها تقرأ عليه شيئا من شعر راسين ، أحس كأنه خلق خلقا جديدا ، ومنذ تلك الساعة التى سمع فيها ذلك الصوت العذب لم يعرف اليأس الى نفسه سبيلا ، فقد ملاء مثله الأعلى أبو العلاء المعرى نفسه باليأس والبؤس والقنوط ، ولكن هذا الصوت بدد ذلك البؤس واليأس ، وحوله الى أمل وحب للحياة .. انها سوزان رفيقة طه حسين التى قال عنها فى رائعته (الايام) ...

★ (.. جعلت شقاءه سعادة ، وضيقه سعة ، وبؤسه نعيما وظلمته نورا ، وأخذت ثقته بنفسه تثوب اليه ، وأخذ ينجلى عنه الشعور بالغربة ، والضيق بالوحدة والسأم من العزلة .

★ فى فرنسا تخلص من جلبابه المعتاد ، وبدأ يرتدى الملابس الاوروبية ، ولكن الشيء الذى أتعبه رباط العنق فلم يستطع أن يتعلم لفه وربطه الا بعد حين ، كذلك وضع على عينيه نظارة سوداء ، حفاظا على مظهره وبدأ يتقبل الحياة ، بل ويقبل عليها بعد أن كان يعرض عنها ، ويحاول الاختفاء ليعيش فى الظل .. تغيرت حياته تماما . وبعد أن أتقن اللغة الفرنسية ، تعلم اللاتينية وأقبل على الحياة فى فرنسا وكأنه فرنسى الجنسية وصادق المفكرين والادباء .. دور كايم مؤسس علم الاجتماع الحديث .. اندريه جيد .. جان بول سارتر .. ماسينيون ..

وغيرهم .

* كان طه مشغوفا بالعلم والادب والقراءة ومن حسن طالعه أن كانت فتاته التى أحبها وبادلته الحب بعد ذلك تهوى القراءة والادب ، فكانا يسهرا الليالى هى تقرأ وهو يسمع ووجدا سعادتهما الحقيقة فى ذلك .. بل أن الكتاب كان ثالثهما حتى فى عطلة نهاية الأسبوع وهما يتنزهان فى الغابات المحيطة بباريس .

* وهنا نذكر أن سوزان صديقة طه كانت بمثابة أستاذه الاول فى فرنسا ، فهى التى وقفت بجانبه وشجعته على الدراسة ، وكانت تقرأ له ليل نهار بالفرنسية أحيانا أو اللاتينية واليونانية فى أحايين أخرى ، وقد تزوج طه بسوزان مما زاد رباط الألفة والمحبة بينهما وبالتالى زاد ثقافته وحبه ونهمه للعلم .

* فى عام ١٩١٧ استطاع طه الحصول على درجة الليسانس فى الاداب من السوربون ، وفى العام التالى ١٩١٨ نوقشت رسالة الدكتوراه التى تقدم بها عن فلسفة ابن خلدون وقد كتبها باللغة الفرنسية مما يدل على مدى تمكنه منها والتعمق فى الفكر والثقافة الفرنسية ، وفى عام ١٩١٩ عاد الدكتور طه حسين إلى مصر – ولم يعد وحده بل عاد مع زوجته سوزان وثمرة حبه لها ابنتهما أمينه .. عاد ومعه درجة الدكتوراه من السوربون التى كانت مطمح آماله .. وأهم من ذلك أنه عاد الى وطنه مؤمنا بالثورة على الجهل والفساد والظلم وعرف أن دوره مع العلماء والمثقفين هو تزعم وقيادة هذه الثورة .. ألم يعيش فى باريس بلاد النور ويعايش التقدم والحضارة ؟ ويستمع الى فيلسوف (سان سيمون) يؤكد له ولكل المثقفين والعلماء أن دورهم هو العمل على رقى الشعب فى شتى المجالات ؟

* بعد عودته عين الدكتور طه حسين أستاذا للتاريخ القديم فى الجامعة واستمر فى ذلك حتى عام ١٩٢٥ ، وهو العام الذى أصبحت فيه الجامعة حكومية بعد أن كانت أهلية منذ افتتاحها عام ١٩٠٨ .. فى هذا العام عين الدكتور طه أستاذا لتاريخ الادب العربى فى كلية الآداب .. وبعيدا عن المناصب الكثيرة

التى شغلها طه حسين عميدا لكلية الآداب أعوام ١٩٢٨ ، ١٩٣٠ ، ١٩٣٦ ومدير جامعة الاسكندرية ووزيرا للمعارف فى الفترة من ١٣ يناير ١٩٥٠ إلى يناير ١٩٥٢ ومديرا للثقافة بالجامعة العربية ورئيسا للمجمع اللغوى المصرى .. أقول بعيدا عن هذه المناصب كان الدكتور طه حسين يملى مؤلفاته ، وفيها عصارة تفكيره فى كتبه التى أثرت المكتبة العربية والعالمية ، والتى بلغت خمسة وستين كتابا مؤلفا ومترجما كما يقول الدكتور كمال قلته فى كتابه الرائع عن طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية فى أدبه .. وقد كتب فى كل فنون الادب وفروعه .. التاريخ .. الفلسفة .. الصحافة .. النقد .. الشعر .. القصة .. التراجم الذاتية .. وغيرها .. ولعل من أشهر كتبه .. الايام (ثلاثة أجزاء) .. وفيه يترجم لنا نفسه ونشأته ودراسته فى الكتّاب والازهر والجامعة .. وسفره للدراسة فى فرنسا .. وفتاته التى لعبت دورا هاما فى حياته .. وعاهته التى نكب بها ، وكيف استطاع أن ينتصر عليها ويصبح إنسانا سويا بل ويتفوق على زملائه الاسوياء الأقوياء ويصبح رائدا فى الفكر .. وأصدر الدكتور طه حسين فى عام ١٩٢٦ كتابه « فى الشعر الجاهلى » الذى أثار ضجة كبيرة فى المجتمع على مستوياته المختلفة ، فقد أثار رجال الدين والمسئولين فى وزارة المعارف (وزارة التربية والتعليم) ورجال مجلس النواب والشيوخ والكتاب والصحفيين ، وأنبرت الاقلام تهاجم الدكتور طه فتارة تتهمه بالقصور فى فهم التاريخ وتارة أخرى تتهمه بعدم الدقة فى النقل ووصل عدد الكتب التى الفت للرد عليه أربعين كتابا بل اتهمه رجال الدين باتهامات كثيرة ، وأمام هذه الحملة الكبيرة والاتهامات الكثيرة اضطر الدكتور طه حسين إلى تعديل آرائه وبخاصة ما عرض منها للدين وأعاد طبع الكتاب فى السنه التالية لصدوره أى عام ١٩٢٧ بعد سحبه من السوق ، ووضع للكتاب عنوانا جديدا حتى يتخلص من حملة النقاد فأسماه « فى الادب الجاهلى » وعلى الرغم من الحذف والتعديلات التى أدخلها الدكتور على كتابه الا أنه لم يغير نظرته الىالشعر القديم ، أما هذه النظرة فتقول أن الادب الجاهلى ليس أدبا جاهليا أو خالصا وانما الكثرة منه

أو معظمه منقول ودخيل عليه ، وأن ما نقرؤه على أنه شعر أمرىء القيس أو عنترة أو طرفة أو أبن كلثوم ليس من هؤلاء جميعا فى شىء ، وانما هو من تأليف الرواة والمفسرين والمحدثين .

* ومن الكتب التى أثارت النقاد ضد طه حسين أيضا كتابه « مع المتنبى » الذى أصدره بمناسبة مرور ألف عام على ذكرى المتنبى .. وهو دراسة عن حياة الشاعر من خلال أشعاره التى قالها فى مختلف المناسبات طوال حياته .. وفى الكتاب يقرر الدكتور طه أن ديوان المتنبى يصور جزءا من حياة صاحبه لا حياته كلها ، وكان طه حسين يكره بعض خلق المتنبى و لم يستطيع أنكار ذلك فى كتابه ، مخالفا بذلك رأى أبى العلاء .

* وكان طه معجبا بحياة أبى العلاء المعرى ولذلك ألف ثلاثة كتب عنه ، أولها ذكرى أبى العلاء المعرى ، الذى حصل به على أول درجة للدكتوراه تمنحها جامعة القاهرة عام ١٩١٤ ، وكان هذا الكتاب بداية طه حسين الادبية وجواز السفر الذى اقتحم به الحياة الأدبية ، وعلى عكس علاقة طه بالمتنبى كان يحب أبا العلاء واعتبره نموذجا يحتذى به فى حياته ، ومن هنا اهتم بعرض حياته وشرح أشعاره وتبسيط مبادئه حتى يحبب فيه القارىء ، أما الكتابان الأخران عن أبو العلاء فهما (مع أبى العلاء فى سجنه) و (صوت أبى العلاء) .

* وفى مجال التراجم الشخصية أيضا ألف دكتور طه حسين كتابا عن (حافظ وشوقى) ضمنه دراسة عن الشاعرين الكبيرين ورأيه فى شعر كل منهما .. كما كتب كتابا آخر تحت عنوان (قادة الفكر) عرض فيه لمجموعة من قادة الفكرالقديم مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم ، ولم يخف طه حسين فى هذا الكتاب اعجابه بالفكر والادب والفلسفة اليونانية .. وقد كتب الدكتور كتابه فى أكثر من دولة و لم يستطع التفرغ الكامل لكتابته ، فبعض فصوله كتبها فى لندن والآخر فى فرنسا وفى القاهرة ، وربما كان هذا سبب التفاوت والاختلاف بين فصول الكتاب ، فلن تجد فى كل منها روح الكاتب المدققة الفاحصة المطنبة .

* ويبدو أن الكتابة فى التراجم الشخصية كانت هواية عميد الأدب العربى ،

فهو يكتب – كما قرأنا – عن الأدباء والشعراء والقادة ، ثم هو يكتب عن الشيخين أبى بكر وعمر كتابا خاصا ، لما لهما من دور كبير فى التاريخ .
وفى كتابه هذا « الشيخان » يعرفنا الدكتور طه حسين بكل منهما ودوره فى ادق مراحل التاريخ الاسلامى ، فيقول عن ابى بكر .. « .. قابل أبو بكر أعظم محنة تقابل انسانا وهل هناك محنه أكبر من أن يموت محمد صلى الله عليه وسلم . ويكون أبو بكر هو المسئول بعده عن أمر المسلمين .
لقد خرج أبو بكر من هذه المحنة دون أن تضطرب لها نفسه ودون أن يجد الضعف أو الريب الى نفسه سبيلا » .
ويقول الدكتور طه حسين عن عمر بن الخطاب :
« .. لم يعرف المسلمون خليفة أو ملكا بعد عمر جعل بيت المال ملكا للمسلمين ينفق منه على الجيوش المحاربة ، ويعين منه من احتاج الى المعونه ويوفر ما يبقى منه ليشيعه بين المسلمين ، رجالهم ونسائهم وأطفالهم ، يأخذون منه أعطياتهم فى كل عام تسعى اليهم هذه الاعطيات دون أن يتكلفوا مشقة فى طلبها سواء فى ذلك منهم القريب أو البعيد . وقد رأيت أنه كان يحمل بنفسه المال الى البادية القريبه من المدينه فيعطيه للناس فى أيديهم . وقد رأيت كذلك أنه فى عام الرمادة كان يحمل الطعام على ظهره ويسعى به الى الاعراب النازلين حول المدينه وربما طبخه لهم بنفسه ، ولم يعرف المسلمون ملكا أو خليفة بعده عنى بحماية الذميين والرفق بهم فى أمرهم كله كما عنى بهم عمر ثم لم يعرف المسلمون خليفة أو ملكا بعده عنى بأمر الدين ، واقامة الحدود ، وتأديب الناس على الصغير والكبير من أعمالهم وعلم المسلمين دينهم ، رفيقا بهم حريصا على أن تستقيم لهم دنياهم ، وعلى أن يجنبهم ما يؤخذون به فى آخرتهم ما استطاع الى ذلك سبيلا . فعل هذا كله حتى بلغ منه ما لم يبلغ الخلفاء والملوك فى الاسلام ، وفى الأرض التى لم تسلم ، فلسنا نعرف اليوم بلدا يوفر فيه الرزق على الناس من بيت المال أو من خزائن الدولة دون أن يمنعهم ذلك من العمل لانفسهم وللناس ، ومن التزيد فى الكسب والتوسع فى الغنى .

★ هكذا اهتم طه حسين بالتراجم فكانت رسالة الدكتوراه من جامعة القاهرة عن أبى العلاء المعرى ، ورسالته للدكتوراه من السربون فى باريس عن ابن خلدون ، ولا ننسي رائعته عن نفسه « الايام » بل أنه عندما ترجم كتابا عن اليونانية وهو (نظام الاثينيين) لم ينسى أن يكتب مقدمة عن الفيلسوف أرسطو فى ٣٩ صفحة تعتبر من اجمل ما كتب عن أرسطو فى العربية ، هذا بالاضافة . الى تعرضه فى كتبه الاخرى للحديث السريع عن الادباء والفلاسفة والمفكرين وغيرهم .

★ ومن كتب طه حسين المعروفة كتابه « حديث الاربعاء » الذى نشره فى ثلاثة اجزاء وهو تجميع للفصول التى كتبها متفرقة فى مجلة السياسة وفى الجزئين الاولين يقدم المؤلف دراسة للحياة الادبية عند شعراء اللهو والمجون فى الدولتين الاموية والعباسية اما الجزء الثالث فقد خصصه للادب المعاصر والشعراء المحدثين .

★ ويصحبنا الدكتور طه حسين فى كتابه « الوان » الى جولة مع الادب العربى والاجنبى عبر التاريخ .. كذلك يفعل فى كتابه الاخر تحت عنوان « بين بين » .

★ والدكتور طه حسين مفكر ثائر دائما الم يقل عن نفسه انه مقلق دائما .. ساخط دائما .. مثير للسخط من حوله .. وتتجلى هذه الثورة فى كتابه « خصام ونقد » الذى صدر عام ١٩٥٥ وفيه يثور كاتبنا على ركود حياتنا الادبية ، وندرة الكتب القيمة وعدم أتاحة الفرصة للكتّاب فى التعبير عن انفسهم وافكارهم ، ولست ادرى ماذا يقول الدكتور طه حسين لو عاش بيننا هذه الايام ؟

★ وتتجلى شخصية طه حسين المفكر الثائر اكثر وبوضوح فى روايته الخالدة « المعذبون فى الارض » التى نشرها فى بيروت عام ١٩٤٩ ، فقد عبر فيها عن آلام وهموم وأوجاع الناس البسطاء او كما نقول رجل الشارع وقارن بين القلة المتخمة والاكثرية المتعبة التى تتضور جوعا وتعانى الضعف والمرض ولا تجد ما تكسو به اجسادها ، وكان طبيعيا ان تضيق السلطة ذرعا بهذه الرواية ، بل ان تمنعها وأخذت السلطة تراقب هذا المفكر الثائر وتضعه دائما تحت المنظار .

* وفى مجال القصة والرواية قدم الدكتور طه حسين أيضا رواية « أديب » وهى ترجمة ذاتية لنفسه مع وصف المجتمع المصرى فى بداية القرن العشرين ، ويعتبرها النقاد الجزء الرابع لرائعته الايام .

* ويعتبر النقاد كذلك رواية « شجرة البؤس » استمرارا لاهتمام طه حسين بالكتابة عن نفسه وأسرته ، فشجرة البؤس هى قصة أسرته ، كما ذكر الاديب عباس خضر فى كتابه « قصص أعجبتنى » .

* ومن روايات طه حسين .. دعاء الكروان .. الحب الضائع .. أحلام شهرزاد القصر المسحور وقد ألفه بالاشتراك مع الكاتب الكبير توفيق الحكيم .

* ولا نستطيع الحديث عن مؤلفات طه حسين دون ذكر كتبه الاسلامية ، فان طه كاتب اسلامى له مكانته ، وله أسلوبه الشائق الجذاب الذى يساهم فى تبسيط وشرح القضايا الاسلامية ، وقد عرضنا قبل ذلك لكتابه « الشيخان » .. وفى كتابه « على هامش السيرة » يتناول المؤلف بالدراسة السيرة النبوية بهدف تقريبها من الناس عن طريق بساطة الأسلوب ، بعد أن باعدت الأساليب المعقدة بين السيرة والناس ، ويقدم طه حسين كتابه هذا بقوله : « هذه صحف لم تكتب للعلماء ولا للمؤرخين . لانى لم أرد بها الا العام ، ولم أقصد بها الى التاريخ . »

وانما هى صورة عرضت لى أثناء قراءتى للسيرة فأثبتها مسرعا ، ثم لم أر بنشرها بأسا ولعلى رأيت فى نشرها شيئا من الخير .

وفى عام ١٩٤٧ أصدر الدكتور طه حسين الجزء الاول من كتابه « الفتنة الكبرى » وتبعه كتاب « الوعد الحق » الذى صدر فى عام ١٩٥٠ ، وبعد ذلك أصدر كتابه « مرآة الاسلام » ١٩٥٩ .

* على أننا لا نستطيع - كما يقول الناقد والكاتب الصحفى جلال العشرى - أن نصنف طه حسين على أنه كاتب اسلامى على النحو الذى نصنف به الشيخ محمد عبده أو العقاد أو مصطفى عبد الرازق لكن كتاباته الاسلامية كانت جزءا من كتاباته الشاملة بوجه عام على أساس أن طه حسين كان يعد من

جيل الموسوعيين فى ثقافتنا العربية الحديثة .. أى المثقف الشمولى الذى يستوعب الكثير من المعارف والعلوم والمعلومات ويحاول أن يقدمها للقارىء العربى .

* هذه بعض مؤلفات عميد الأدب العربى قصدنا بها التعريف بمدى اسهامه فى تكوين المثقف العربى والمصرى فى شتى المجالات ولمزيد من المعرفة بمؤلفات العميد يمكن الرجوع الى كتاب « الى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين » دراسة أشرف عليها الاستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوى ، صدرت عن دار المعارف عام ١٩٦٧ .. وكتاب « ماذا يبقى من طه حسين ؟ للكاتب الصحفى الاستاذ سامح كريم ، صدر عن دار الشعب عام ١٩٧٥ .

* وقد اهتم الدكتور طه حسين أيضا بترجمة عيون الأدب والفكر اليونانى والفرنسى فترجم للفيلسوف (أرسطو) ، والأديب (أندريه جيد) و« فولتير » و« جول سيمون » و« راسين » و« جوستاف لوبون » ولا شك أنه أثرى المكتبة العربية بترجمته لكل هؤلاء وغيرهم وفتح نافذة يطل منها العقل العربى على الفكر الغربى قديما وحديثا . وكان طه حسين هو أول من نادى وعمل على تدريس اللغة والأدب اليونانى واللاتينى فى الجامعة .

* وظل طه حسين يساهم فى تكوين العقل والثقافة العربية أكثر من نصف قرن من الزمان بقراراته الشجاعة عندما كان وزيرا للمعارف فى الفترة من ١٣ يناير سنه ١٩٥٠ الى ٢٦ يناير ١٩٥٢ اذ أعلن أن التعليم ضرورى لكل انسان ضرورة الهواء والماء ، ومن ثم قرر مجانية التعليم الثانوى والتعليم الفنى ، وحاول أن يجعل التعليم العالى مجانا أيضا لكن الملك لم يوافقه وقتذاك ، وحول عدداً كبيراً من المدارس الأولية الى ابتدائية وأنشأ آلاف الفصول ، وانتشر التعليم فى عهد وزارته انتشارا واسعا .. كذلك ساهم طه حسين فى تكوين العقل والثقافة العربية بفضل مؤلفاته ومترجماته التى مازالت تثرى المكتبة العربية والفكر الانسانى .. لهذا استحق التكريم فى حياته فى مصر والعالم كله ، فقد

نال لقب « باشا » سنة ١٩٥١ وأهدته الثورة فى مصر جائزة الدولة القديرية وقلادة النيل ، كما حصل على وسام « اللجيون دونير » من طبقة جراند أوفيسيه من فرنسا ، وأهدته عدة جامعات عالمية الدكتوراة الفخرية من بينها جامعات مدريد وأكسفورد وكمبردج وليون ومونبيليه ، وقبل يوم واحد من رحيله عرف بحصوله على جائزة الأمم المتحدة التى تهديها للشخصيات التى أدت للانسان خدمات جليلة .

★ كانت السنوات الاخيرة فى حياة طه حسين مليئة بالمعاناة من المرض ، ونتيجة لذلك خلت من الانتاج الفكرى والعطاء المتدفق ، ومع ذلك فرصيده من العطاء يجعلنا نضعه فى قمة العباقرة الذين هزموا اليأس ، ورفعوا اسم مصر عاليا فى الاوساط الدولية ، وكانوا يلقبونه بفولتير العرب ، فقد أدى لمصر نفس الرسالة التى أداها فولتير الشاعر والأديب الساخر لفرنسا .. وهى رسالة التنوير والتثقيف .

★ وفى يوم الاحد الثامن والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٧٣ انتهت هذه الملحمة من الكفاح والنضال والانتصار ورحل الدكتور طه حسين عن عالمنا .. والطريف أن السنتين اللتين ولد ورحل فيهما تعتبران من السنوات الهامة فى تاريخ مصر .. فميلاده كان فى الرابع عشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٨٩ ، وهى السنه التى شهدت ميلاد مجموعة من الشخصيات التى لعبت دورا كبيرا فى حياة الانسانية كلها خلال النصف الأول من القرن العشرين كما أوضحنا ذلك فى بداية هذا الفصل .. أما السنة التى رحل فيها وهى سنة ١٩٧٣ فهى السنة التى استطاع الجندى المصرى البطل الشجاع أن يعيد الى مصر والعروبة كرامتها وحريتها بفضل انتصاره فى معركة السادس من أكتوبر أى فى نفس الشهر الذى رحل فيه العميد وقبل أيام قليلة من رحيله .

★ وهكذا كانت السنتان التى ولد ومات فيهما طه حسين سنتين هامتين فى التاريخ .

★ وكما كرمته مصر فى حياته كرمته أيضا فى رحيله فبمجرد انتشار واذاعة

النبأ الحزين عن رحيله أعلن الأديب الوزير يوسف السباعى – وزير الثقافة فى ذلك الوقت – أن وزارة الثقافة ستتولى كافة الاجراءات والترتيبات الخاصة بالجنازة والتى تحدد موعدها فى الساعة الحادية عشرة صباح يوم الاربعاء ٣١ أكتوبر ١٩٧٣ ، أما المكان فكان جامعة القاهرة المكان الذى شهد بداية حياته الفكرية ومعاركه وأستاذيته وصولاته وجولاته حتى وصل الى كرسى عميد الأدب العربى .

* وفى صباح اليوم المحدد هرع الالآف من الطلبة والمثقفين وكل من يعرف قيمة الرجل وعظمته .. هرعوا جميعا الى جامعة القاهرة للاشتراك فى تشييع جنازة طه حسين ابن مصر البار .. وقد وصل عددهم الى خمسين ألفا تقريبا .. وفى الساعة العاشرة صباحا وصل الى الجامعة جثمان الدكتور طه حسين محاطا بكسوة من الحرير الاخضر ، وفى الحادية عشرة تحركت الجنازة من القاعةالكبرى ، مارة بحرم جامعة القاهرة ، الى ميدان الشهداء ، ثم اخترقت كوبرى الجامعة حتى مسجد صلاح الدين بالمنيل الى حيث أقيمت صلاة الجنازة ، ثم نقل الجثمان الى المقبرة التى أقامتها الدولة فى « البساتين » وأثناء الجنازة هتف طلبة الجامعة بتحية العميد الذى أتاح العلم للجميع .

غاندى

الهادىء يهزم الجبابرة

المصلح هو الذى يتحمس للاصلاح
لا المجتمع الذى يراد اصلاحه ،
لذلك كان على المصلح الا ينتظر
وهو فى سبيل الدعوة للاصلاح غير
المعارضة والكراهية والاضطهاد
المميت فى بعض الاحيان ...

« **غاندى** »

★ احب بنى وطنه ثم تدرج فى حبه فشمل الانسان فى كل مكان ، وترجم هذا الحب الى اعمال فكان بسيطا متقشفا زاهدا مدافعا عن الخير والحق والحرية والقيم النبيلة كلها ، واختتم حياته شهيدا لحبه وعدم تعصبه .

★ انه المهاتما غاندى الذى تقطر حياته طهرا وحبا وقداسة ووطنية ، وصدق العالم اينشتين – صاحب نظرية النسبية – عندما قال عنه « .. سوف يتعذر على العالم بعد الف سنة ان يصدق ان مثل هذا الرجل كان يمشى بين الناس يوما ما .. » .

★ ولد موهانداس كومشاند غاندى فى مدينة بورباندر على ساحل الهند الغربى فى الثانى من شهر أكتوبر فى سنة ١٨٦٩ ، وكان ابوه وزيرا مهما فى أحدى الامارات وعنه ورث غاندى الصدق والشجاعة والزهد فى المال ، فى نفس الوقت الذى ابتعد فيه عن سلبياته المتمثلة فى سرعة الانفعال ، والميل الى الملذات الحية ، فقد تزوج والده بأربع زوجات .

★ واذا كان طفلنا غاندى قد ورث ايجابيات والده ، وابتعد عن سلبياته فانه ورث عن امه كل شيء ، وكانت امراة فاضلة ، شديدة الورع على قدر كبير من الذكاء ، تؤدى فرائض دينها من صوم وصلاة وفق الديانة الهندوسية ، ولا يعطلها سبب عن ذلك حتى المرض ، وكثيرا ما كانت تصوم يوما كاملا من كل يومين متعاقبين فلا تتناول فيه طعاما على الاطلاق ، وكان غاندى يصغى لها ويشنف اذنيه بتراتيل الصباح التى تنشدها له ..

★ « ايتها الزهرة الباسمة من الشرق .. تدور السرور والحياة فى قلوب الخلق »
★ أيها النور المنبثق من ظلمات الليل يهدى الى العالم طلعة الفجر
★ أيها الكوكب السالك دروبا لم يعلها غبار ، ولم تطأها اقدام أقبل مع موجات الهدوء ، لتوقظ الكون ، وتبعث الحياة ، وتغمر الدنيا بالضوء ، ليكن لنا فى نورك يوم بهيج سعيد ، وعمل خير رشيد ... »
★ وعندما يأتى المساء تردد الأم تراتيل مختلفة تفيض حبا وشكرا لله ..

تمجيدا لك ربى وحمدا ، خلقتنى حرا لا اعرف الذل ، وشجاعا لا اقر بالقهر ، وناطقا لا أقول الا الحق ، رضيت اللهم نعمتك فلترض عنى حكمتك ، ولتغمرنى رحمتك يانبع الرحمة ، وفيض الحب ، وورد السلام ... منحتنى قلبا خيرا لا يحب الشر ، نقيا طاهرا لا يعترف بالمكر ، مؤمنا برا لا يعرف الكفر » .

وهكذا كانت البداية طيبة ، والجو المحيط بغاندى يمتلىء قداسة وطهرا وتدينا ، فلا عجب أن ينشأ الطفل على حب الحق والايمان بالله والتحلى بالطهر والدفاع عن الانسان .. وفى سن السابعة التحق باحدى المدارس الابتدائية ، وكان تلميذا متوسط الذكاء خجولا ، لا يعرف الاصدقاء فلما بلغ الثامنة عشرة انتقل الى المدرسة الثانوية ، وهناك لم يكن له اصدقاء غير كتبه ، يذهب الى المدرسة فى الصباح ، فاذا دق جرس انتهاء اليوم الدراسى عاد مهرولا الى بيته وقد وقع له حادث فى هذه المدرسة لم يمح من ذاكرته طوال حياته ، فقد زار المدرسة مفتش التعليم ليطمئن على مستوى التلاميذ ، وأملى عليهم خمس كلمات ليكتبوها وتوقف غاندى عند كلمة منها لم يتذكر حروفها وهى كلمة « غلاية » Kettle ورآه المدرس وهو تائه عن الصواب فغمزه بمقدمة حذائه لكن غاندى الفتى البرىء لم يفهم هدف المدرس ، فقد كان مدرسه يريد منه الاطلاع على صواب الكلمة من زميله الذى يجلس بجواره ، وكانت نتيجة ذلك أن أصبح غاندى الوحيد الذى لم يصل الى الاجابة الصحيحة لانه رفض الغش وظل طوال حياته لا يعرفه ..

وتتلاحق احداث حياة غاندى سريعة فيتزوج وهو مازال طفلا فى الثالثة عشرة من عمره ، ولم تكن له أرادة أو رغبة او رأى فى هذا الزواج ، بل هى العادات والتقاليد الموروثة والتى ثار عليها بعد ذلك ، والطريف أنه خطب ثلاث مرات قبل الزواج ،تعالى نسمعه يتحدث عن التقاليد البالية فى كتابة « قصة حياتى » يقول .. « الزواج عند الهندوس ليس بالامر الهين او البسيط ، بل هو كثيرا ما يجلب الخراب على الآباء وينتهى بهم الى الافلاس بسبب ما

يتكبدونه فى سبيله من نفقات فهم يبددون على حفلاتهم مالهم ويضيعون وقتهم . وتمضى الشهور وهم يستعدون لتلك الحفلات ، ما بين تطريز الملابس واعداد الحلى وتدبير المال اللازم للمآدب والولائم .. »

★ وعن شعوره وقتذاك وهو عريس طفل يقول غاندى :
« .. ما احسب ان الزواج كان له معنى عندى فى ذلك الوقت اكثر من انه مناسبة لارتداء الجديد من الملبس والاستمتاع بدق الطبول وبالموائد الدسمة ، ثم بعد كل ذلك فتاة ألعب معها .. »

★ وحاول صاحبنا ان يثبت رجولته وهو فى السن المبكرة فمنع زوجته « كاستورباى » من الخروج الا باذنه ، وكان ذلك مثار نزاع بينهما . وشاءت ظروفه ان يتعرف على احد أصدقاء السوء فى المدرسة وأراد ان يصلحه ويوجهه الى الطريق السليم ، لكن صديق السوء هو الذى أثر فى غاندى على الرغم من تحذير أمه وأخيه وزوجته منه ، استطاع رفيق السوء أن يقنع صاحبنا بضرورة تناول اللحوم فهو السبب فى قوة الاقوياء وسيطرة الاستعمار ، وضعف غاندى امام هذه الاغراءات ، وهو الفتى الهادىء الذى يخاف الظلام واللصوص والاشباح ولا يستطيع النوم الا فى ضوء المصباح ، وقرر ان يتناول اللحم لاول مرة ، حتى يصبح قويا شجاعا ، ولان تناول اللحوم كان محرما على ابناء الديانة الهندوسية فقد اخذ يتناوله بعيدا عن بيته وعلى شاطىء النهر ، حتى لا يغضب ابويه وللمرة الاولى لم يعجبه لحم الماعز ، ولم يلتذ به ، وكان يقاوم هذا الشعور بغية البحث عن القوة من اجل الاصلاح وطرد الاستعمار ، وفى ذلك يقول فى ترجمته الذاتية لنفسه :

★ « .. لم استسغ شيئا من اللحم والخبز ، فقد كان لحم الماعز جامدا كالجلد فلم استطع اكله ، بل لقد تقيأت ما دخل جوفى منه واضطررت الى الكف عن الاكل وامضيت بعد ذلك ليلة من اسوأ الليالى انتابنى فيها كابوس مخيف ، وكنت كلما غلبنى النوم احسست كما لو كان ماعز حى يثغو فى جوفى فاهب

من نومى قلقا مذعورا ثم اعود فاذكر نفسى بان اكل اللحم واجب يجب اداؤه فيعاودنى بعض الرضا ... »

★ غير انه قرر بعد عام من هذه التجربة ان يكف عن اكل اللحم حتى لا يضطر الى الكذب على ابويه وفعلا نفذ قراره الخاص بعد عام لم يتناول فيه اكثر من ست وجبات من اللحم ..

★ ولم يكن تناول اللحم هو الرذيلة الوحيدة التى شجعه عليها صديق السوء وانما هناك رذائل اخرى مثل التدخين والذهاب الى بيت للدعارة ، وكان التدخين بالنسبة له مجرد اطلاق سحب من الدخان من فمه للتسلية ، وقد اضطره حبه لهذا الى سرقة بعض نقود الخادم لشراء السجائر وذهب يوما الى بيت من بيوت الدعارة لكنه ارتبك ولم يستطيع الكلام او الحركة مما جعله يخرج كما دخل ، وهو يشعر بسعادة لذلك وبان الله حفظه حتى لا يخون زوجته ، وهكذا دفع رفيق السوء غاندى الى ارتكاب الاثم وحب الرذيلة ، لكنه سرعان ما عاد الى رشده وابتعد عن كل ذلك بفضل تربيته الحميدة ، ونفسه الوديعة المحبة للخير ، واخيرا اعترف لوالده ببعض اخطائه وطلب منه العفو واقرار العقاب الذى يراه ، فكانت اجابة الوالد دموع غزيرة مسحت اخطاء الابن وطهرته من الاثم ..

★ وأصيب الأب الكريم بمرض أقعده فما كان من الابن البار غاندى الا ان يسهر على راحته ليخفف الآمه ويعد له الدواء ، ويدلك قدميه ، وهو مسرور بخدمه والده الذى احبه من كل قلبه ، وظل يقوم بدور الممرض حتى جاءت ساعةوالده ، وانتقل الى جوار ربه وترك ابنه وهو فى السادسة عشرة من عمره ..

★ بعد وفاة الوالد تعثر غاندى فى الدراسة ، واقترح صديق الاسرة « ماف جى دافى » ان يكمل غاندى دراسته فى انجلترا لدراسة القانون ، وكان من الصعب على والدته أن يبتعد عنها ، وبخاصة وانها سمعت كثيرا عن مجتمع لندن

المفتوح والقيم الاخلاقية المتدهورة تماما عن الهند ، ولكنها وافقت على سفره اخيرا بعد ان تعهد لها واقسم الا يمس الخمر ، ولا يقرب النساء ، ولا يأكل اللحم ، وسافر صاحبنا الى انجلترا ..

* مجتمع جديد حقا هذا المجتمع الانجليزى على اى انسان فى العالم ، فما بالك لو كان هذا الانسان غاندى الشاب الهادىء الوقور الخجول الانطوائى ، كانت اللغة حائلا بينه وبين الانصهار فى المجتمع الجديد ، مع عاداته وتقاليده ووعده لامه بالابتعاد عن كل ما يخالف تقاليد الهند ، واستطاع ان يحطم حاجز اللغة شيئا فشيئا ، ولكنه لم يتخل عن وعده لامه بالرغم من كل المغريات ، واضطره حياؤه احيانا الى ان يترك المائدة وهو جائع ، وفى احدى جولاته فى شوارع لندن — شارع فارنجتون — عثر على مطعم نباتى فسر بذلك وقبل ان يدلف اليه لمح على الباب كتابا معروضا للبيع تحت عنوان ، « مناشدة من اجل النظرية النباتية » فابتاعه ثم تناول طعامه النباتى فى المطعم بشهية كبيرة ، ولاول مرة يتطيب الطعام النباتى ويتمتع به ، وقرأ الكتاب بعد وصوله الى البيت ، فاصبح بعد ذلك نباتيا بمحض ارادته بعد ان كان نباتيا بحكم عادات وتقاليد بلاده ، بل اخذ يشجع الاخرين على ذلك واقام ناديا للنباتيين فى حى « بيزووتر » فى لندن ثم انتخب بعد ذلك عضوا فى اللجنة التنفيذية لجماعة النباتيين ...

* وحاول غاندى ان يسلك سلوك « الجنتلمان » أى الرجل الراق الذى يعرف الذوق والاتيكيت ، لا سيما أنه يعيش فى قلب دولة الحضارة والتقدم حينذاك ، وهى لندن فالتحق باحدى مدارس الرقص ، وتدرب على العزف على آلة الكمان ، واتقن عقد رباط العنق والعناية بملابسه ، غير ان هذا الافتتان بالسلوك العصرى لم يتعلق بذهنه واهتمامه اكثر من ثلاثة اشهر وسرعان ما عاد الى طبيعته الهادئة البسيطة المتقشفة ويحكى لنا بنفسه عما سببه له خجله من مشاكل وميزات فيقول :

* « .. لا مناص لى من الاعتراف بان خجلى الطبيعى على الرغم مما كنت

اتعرض بسببه لسخرية الناس وضحكهم فى بعض الحالات لم يكن بالامر الذى اساء الى فى حياتى على الاطلاق ، بل انى لأراه امرا فى مصلحتى ، فان ترددى فى الكلام وان تبرمت به فى وقت من الاوقات ، قد صار الآن باعثا على سرورى ، فقد علمنى ان أضبط آرائى ، وقد علمتنى الحرية فوق ذلك ان السكوت جزء من التربية الروحية لكل من كانت تصبو نفسه الى ان يكون لسان صدق ، ومن كان كلامه قليلا قلما يندفع فى كلامه دون تفكير ... »

* انقضت السنوات الثلاث المقررة لدراسة غاندى فى انجلترا ، واجتاز امتحان الحقوق بنجاح ، واصبح عضوا فى جماعة محامى انجلترا فى العاشر من شهر يونيو عام ١٨٩١ ، وقيد للمرافعة امام المحكمة العليا فى الحادى عشر . وفى اليوم التالى حزم حقائبه وابحر عائدا الى بلاده الهند ..

* كان اول هدف لصاحبنا عند عودته هو رؤية امه التى طالما اشتاق اليها فى الغربة ، ولكنه فجع عندما عرف بوفاتها ، واقتحم الحزن قلبه من اجل اعز انسانه عنده فى الوجود وبدأ حياته العملية وانتظر القضايا ليمارس مهنته كمحام ، لكن الحظ تعثر ، واخيرا جاءه من يطلب منه الدفاع فى قضية بسيطة فقبلها ، وامام المحكمة وقف يدافع عن المدعى عليه ، ولكن خجله لم يسمح له بذلك ، فدارت راسه وشعر بان قاعة المحكمة تدور بمن فيها امامه ، ولم يملك الا ان يطلب من موكله اسناد القضية لمحام آخر بعد ان اعاد اليه اتعابه ، وسرعان ما غادر قاعة الجلسة ، وقرر بينه وبين نفسه الا يقبل قضية اخرى الا بعد ان يجد فى نفسه القدرة والشجاعة اللازمة . والعجيب ان هذا الشاب الخجول الذى ارتبك امام المحكمة وهو يدافع عن قضية صغيرة ، اصبح بعد ذلك اكبر مدافع عن الانسانية ضد التفرقة العنصرية وظلم الانسان لاخيه الانسان ، والاستعمار البغيض ، والواقع ان نشأة غاندى وتربيته وشخصيته التى تقترب من التصوف ، وقراءاته الكثيرة ، وسماحة اخلاقه وصبره هى التى ساعدته فى ان يكون اكبر محام للانسانية جمعاء وعن الدروس الاولى التى تلقاها فى التسامح يقول :

★ « .. فى راجكوت تلقيت دروسى الاولى فى التسامح نحو جميع الطوائف الهندوسية ونحو غيرها من الاديان الشقيقة ، فقد كان ابى وامى يزوران معهد (الهافيلى) كما كانا يزوران معابد « شيفا وراما » على السواء ، وكانا فى تلك الزيارات يصحباننا نحن الصغار معهما تارة وتارة اخرى يبعثان بنا اليها جميعا .. وكان لابى فوق ذلك اصدقاء من المسلمين ومن المجوس ، كانوا يأتون اليه ويتحدثون معه فى شئونهم الدينية ، فكان ينصت اليهم دائما فى اجلال واحترام ، وفى كثير من الاهتمام واتاح لى قيامى على شئون ابى – خلال مرضه – فرصة الاستماع الى تلك الاحاديث .. كل ذلك تجمع فى نفسى وغرس روح التسامح نحو جميع الاديان » ..

★ وهو يؤمن ايمانا شديدا بالله ويعتبر الصلاة والعبادة جزءا هاما فى الحياة ، فالصلاة على حد قوله لا يمكن ان تكون خرافة ، بل هى امر واقعى ، بل اكثر من واقعية حتى من الاكل والشرب ، ومن الجلوس والمشى ..

★ وقرأ الكتب المقدسة « الجيتا » و« العهد الجديد من الانجيل » و « ترجمة القرآن الكريم » وابدى اعجابه بها جميعا ولانه نشأ على الحب والتسامح فقد شدته موعظة السيد المسيح على الجبل وبخاصة الآية التى تقول « .. لا تقاوم الشر ، ومن ضربك على خدك الايمن ادر له خدك الايسر ، ومن طلب منك رداءك فاعطه عباءتك » ومع اعجابه بتعاليم الانجيل الا انه لم يعجب بالمسيحيين الذين لا يسيرون على هدى تعاليم دينهم ، لا سيما أوربا المستعمرة فى هذا الوقت والمسيحية اسما ..

★ ووجد غاندى فى نفسه ميلا شديدا للتسامح والحب وعدم العنف ، وآمن بان كل خير صادفه فى حياته ، انما كان مرده نزعته الى عدم المقاومة ، وكان هذا الشعور هو الارهاصات الاولى لفلسفته القادمة والتى سينتصر بها على اقوى الاعداء واقصد بها فلسفة السابتياجراها ..

★ أعجب غاندى ايضا بتولستوى وثورو وقرأ مؤلفاتهما ، كما شده كتاب

بعنوان « حتى هذه النهاية » لمؤلفه « راسكين » ولم يتركه الا بعد قراءته دفعة واحدة ، وسيطرت افكار هذا الكتاب عليه حتى قرر ان يعدل ويغير فلسفة حياته وفق المثل العليا التى يحملها الكتاب ، وقد خرج من قراءته له بثلاث نتائج :

* الاولى ... ان خير الفرد فى خير المجموع ..
* الثانية ... ان عمل المحامى له من القيمة ما لعمل الحلاق تماما ..
* الثالثة ... ان الحياة الكادحة التى تقوم على جهد الفرد هى وحدها الحياة الجديرة بان يحياها الانسان ..

* وبينما يعانى غاندى بعد عودته من لندن من تعثر حظه فى بداية حياته العملية كمحام اذ بحادثة تحدث له لتزيد من اوجاعه وهمومه وتصدمه صدمة قوية هى الاولى من نوعها فى حياته .. فقد طلب منه شقيقه التوسط له فى موضوع خاص عند موظف انجليزى كبير بالهند ، كان غاندى قد عرفه خلال دراسته بانجلترا ، ولم يوافق غاندى فى البداية لانه لا يؤمن بالوساطة ، ومع الحاح اخيه اضطر للموافقة ، وذهب الى صديقه الانجليزى يعرض عليه الموضوع ، فقابله بجفاء ، وانتهت الزيارة بنهاية غير متوقعة ، اذ طرد غاندى بالقوة من مكتب الموظف الانجليزى الكبير ، وحاول بعد ذلك ان يرد اعتباره عن طريق القضاء ولكن روحه السمحة جعلته يتنازل عن حقه وبخاصة وانه لن يربح شيئا من وراء تلك القضية ، وفى هذه الاثناء عرضت أحد البيوت التجارية على اخيه ان يرسل غاندى الى جنوب افريقيا ليترافع عنها فى قضية كبيرة يصل حجمها الى اربعين ألفا من الجنيهات ، وكان عمله مجرد الاشراف على المستشارين القانونيين وتوجيههم مقابل ١٠٥ جنيه فى السنة مع التكفل بكل مصاريف السفر والعودة وغير ذلك ..

* كان غاندى يعانى من البطالة ومن معاملة صديقه الانجليزى السيئة مما جعله يتوق الى مغادرة الهند ، فقبل العرض دون مناقشة واستعد للسفر الى جنوب

افريقيا وهناك بدأ رسالته الكبرى فى الدفاع عن الانسان مهما اختلف لونه أو جنسه ، ومهاجمة الاستعمار واستخدام اساليب جديدة شدت انتباه العالم كله وجعلت منه زعيما ثائرا وقديسا طاهرا ..

* بعد وصول غاندى الى جنوب افريقيا بأيام معدودات بدأت اولى مشكلاته مع احد القضاة الذى استنكر عليه ان يرتدى العمامة امامه ، وطلب منه خلعها ، ولكن صاحبنا لم يأبه بطلب القاضى ، وشكلت العمامة بعد ذلك قضية فكرية تناولتها الصحف واستطاع غاندى ان يقسم الرأى العام الى فئتين ، احداهما تعارض ارتداء العمامة والاخرى توافق عليها ، ومع كل هذا تمسك بها وظلت تغطى رأسه حتى نهاية اقامته فى جنوب افريقيا ، وسرعان ما تلاحقت الاحداث لتعد صاحبنا الى قيادة الثورة الهادئة الخالية من العنف ، او العنيفة فى هدوئها ، وبينما غاندى ينتقل من بلد الى اخر فى جنوب افريقيا فى الدرجة الاولى بالقطار اذ براكب يدخل مقصورته عن طريق الخطأ ثم ينظر اليه بدهشة وازدراء فلما وجده ملونا هرول الى الخارج وعاد ومعه اثنان من موظفى السكة الحديد ، لحقهما موظف ثالث طلب من غاندى مغادرة مقعده الى الدرجة الثالثة ، حيث المكان المخصص للملونين ، ودار نقاش حاد بينهما :

* تعال معى فان مكانك فى الدرجة الثالثة ..
* ولكنى احمل تذكرة السفر بالدرجة الاولى ..
* هذا لا يهم فى شىء . لقد قلت لك يجب ان تذهب الى الدرجة الثالثة ..
* وأنا اقول لك لقد سمح لى بالسفر فى هذه المقصورة من دروبان ، وانا مصرّ على ان ابقى فيها ، ولتفعل ما تريد ، فاننى ارفض ان اخرج من هنا طائعا ..

* وجاء شرطى ليحسم الموقف واخرج غاندى من المقصورة ، والقى بحقائبه الى الرصيف وانطلق القطار دون ان يركبه صاحبنا ، وظل على الرصيف يعانى من شدة البرودة والوحدة ، واخذ يفكر فى هذه القضية الانسانية الهامة ، قضية اضطهاد الملونين واحتقارهم وقرر ان يعمل بقدر ما يستطيع على اقتلاع هذا

الداء الدفين ، وان يتحمل فى سبيل ذلك كل ما يعترضه من صعاب ..

★ و لم تكن حادثة القطار هى الاخيرة ، بل ربما كانت اخف من غيرها ، فبعدها مباشرة سافر غاندى من مدينة تشارلستون الى جوهانسبرج عن طريق عربة تجرها الجياد ، فأمره « الريس » وهو رجل ابيض ، ان يتخذ مكانه بجانب السائق ولا يجلس بين الركاب بسبب لونه الاسمر ، فاحتمل الاهانة وفضل ان يركب فى اى مكان حتى يصل والسلام ، ووصلت العربة الى مكان يسمى « بارديكوف » ويبدو ان الريس رغب فى الجلوس بجانب السائق حتى يستمتع بالهواء الطلق ، ويستطيع التدخين ، فاخذ من السائق قطعة قذرة من القماش ووضعها على سلم العربة ، وامر صاحبنا ان يجلس عليها حتى يتيح له فرصة الجلوس بجانب السائق وفى هذه المرة لم يحتمل غاندى ، ونفذ صبره ودار نقاش بينهما اخذ يتصاعد حتى وصل الى استخدام العنف ، واوسع الريس صاحبنا ضربا ولكما ، وحاول جره من مكانه ليجلسه على سلم العربة بالقوة ، ولكن غاندى الهادىء الضعيف تمسك بمكانه وظل متشبثا به ، حتى تدخل الركاب وانهوا المعركة ..

★ قرر غاندى ان يدرس احوال الهنود فى جنوب افريقيا والصعوبات التى يلقونها والمهانة التى يتحملونها فى مختلف النواحى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وتبين له الظلم الكبير الذى يقع على ابناء وطنه ، فالهندى لابد بد له ان يدفع ضريبة على الرءوس قدرها ثلاثة جنيهات لكل فرد ، كرسم لدخول الترنفال وهو فى نفس الوقت لا يتمتع بحق الملكية الا فى اماكن محددة خصصت له ، كذلك لم يكن لهم حق التصويت ، او الخروج من منازلهم بعد الساعة التاسعة مساء ، او السير على الافاريز فى الشوارع ، كل هذا اكد له ان جنوب افريقيا ليس المكان الذى يليق بهندى يحترم نفسه ان يقيم فيه ، وقرر المقاومة ومحاولة الاصلاح وحتى يتفرغ لهذه المشكلة الضخمة والرسالة الكبيرة ، أنهى القضية التى جاء من اجلها الى جنوب افريقيا عن طريق الصلح بين الطرفين ، فقد كان يؤمن بان واجب المحامى هو الجمع بين طرفين فرقت

بينهما الخصومة حتى يمكن الوصول الى حل وسط بعيدا عن ساحة القضاء ، ولم يعد غاندى الى الهند بعد انتهاء مهمته فى القضية التى جاء يترافع عنها ، بل بقى هناك ليدافع عن قضية اخطر منها واقوى ، قضية كل ابناء وطنه فى جنوب افريقيا ، وبينما كان يتصفح صحف الصباح يوما وقفت عيناه على خبر يقول ان مشروع القانون المعروض ، يومئذ على المجلس التشريعى ينص على حرمان الهنود من حق التصويت فى انتخابات مجلس « ناتال » التشريعى وناقش غاندى مع اصدقائه هذا الخبر وقال لهم : أن هذا هو أول مسمار فى نعش الهنود وانه يجب مقاومته ، وقرروا ارسال برقية الى رئيس المجلس التشريعى يطلبون فيها ارجاء بحث مشروع القانون المشار اليه ، وبرقية اخرى الى رئيس الوزراء لنفس الهدف ، وانكب صاحبنا على دراسة القانون بكل دقائقه ثم كتب التماسا لالغاء هذه النظرة من القانون ذيله بعشرة الاف توقيع حتى يأخذ الصفة الشعبية الرسمية ودفع الالتماس الى المجلس بعد ذلك ، كما وزعت ألف نسخة منه على الهنود والصحف ووسائل الاعلام وأبدت صحيفة « تايمس اوف انديا » فى مقالها الافتتاحى مطالب الهنود ، كما فعلت بعض الصحف الاخرى ، نفس الشيء واستطاع غاندى بذلك ان يبدأ بداية ناجحة فى التعريف بقضية أبناء وطنه ، والتف الهنود من حوله يقصون عليه مشاكلهم ، وكان يصغى لهم ويفتح قلبه لكل واحد منهم ، وأصبح املا لكل الهنود فى جنوب افريقيا ، وحتى يستطيع الدفاع عن كل منهم انشأ المؤتمر الهندى بناتال وكانت اول قضية نظرها المؤتمر هى قضية المواطن الهندى « بالاسوندرام » الذى كان يعمل فى خدمة احد الاوروبيين المعروفين ، ثم غضب منه سيده يوما فاوسعه ضربا حتى مزق ملابسه وكسر اسنانه وادمى جسمه ، ولم يترك غاندى هذا المسكين الا بعد ان أجبر مخدومه عن طريق المحكمة على اطلاق سراحه والحقه بخدمه مواطن أوربى اخر اكثر احتراما للانسانية ..

* فى عام ١٨٩٦ استأذن غاندى زملاءه ، بعد ان قضى معهم ثلاث سنوات ، فى ان يعود الى الهند فى اجازة قصيرة يعود بعدها اليهم مع زوجته واطفاله

حتى يكمل رسالته ويمارس عمله الناجح فى جنوب افريقيا .. وبعد عودته الى بلده لم ينس صاحبنا أبناء وطنه الذين يعانون فى الغربة مشاكل كثيرة – ويعاملون معاملة مهينة لا تليق بالانسان ، ومن ثم عكف على تأليف كتاب عن مشكلتهم أسماه « الكتاب الاخضر » وذلك نسبة الى لون غلافه الاخضر وطبع منه فى البداية عشرة آلاف نسخة وزعت على الصحف وزعماء الاحزاب الهندية ، كما طيرت وكالات الانباء اخباره الى لندن ومنها الى جنوب افريقيا وكان رد الفعل لهذا الكتاب قويا جدا ، بل ربما لم يتوقعه غاندى نفسه ..

* انقضت اجازة صاحبنا بسرعة واستعد للعودة الى جنوب افريقيا مع اسرته وشاءت ظروفه ان يبحر الى هناك مع ثمانمائه من مواطنيه على ظهر باخرتين ، وما ان وصلت السفينتان الى ميناء دربان حتى بدات المصاعب الكثيرة ، والمظاهرات الضخمة ضد الركاب من قبل البيض ، وكان المقصود من كل هذه المظاهرات هو غاندى نفسه ، فقد هاجم البيض فى كتابه – وان كان قد هاجمهم بنفس الطريقة فى بلادهم قبل ذلك – واعتقد البيض خطأً أنه احضر معه هذا العدد الهائل من الهنود كى يزيد من غيظهم ، مع انه لم يفكر فى ذلك وعندما هبط غاندى من السفينة عرفه بعض الصبية فصاحوا .. غاندى .. غاندى .. فاتجه اليه المتظاهرون يرجمونه بالطوب والبيض الفاسد وانهالوا عليه ضربا وركلا وخطف احدهم عمامته ، واصيب باغماء فلم تنقذه الا سيدة فاضلة كانت تمر بالمصادفة هى زوجة مدير الشرطة واستطاع ان يمر بصعوبة بعد ان تخفى فى زى شرطى هندى ، واستقر فى بيته بعد أربعة ايام من الهرب والاقامة عند اصدقائه ، وبعد الاستقرار طلبوا منه التعرف على الذين هاجموه وتعدوا عليه بالضرب ، فلم يشأ ان يبلغ عن احدهم – بالرغم من معرفته بهم – وقال « .. ان رأيى الذى لا احيد عنه هو انه لا ينبغى محاكمة المعتدين .. » .

* والواقع ان اخلاق غاندى ومثله العليا ، وفلسفته فى الحياة كانت اشبه ما

تكون بالراهب الناسك ، والمتصوف الزاهد ، لهذا اطلق عليه المؤرخون لقب قديس القرن العشرين ، فهو لا يريد معاقبة الذين اعتدوا عليه بالسب والضرب وكل انواع الاهانة ، بل التمس لهم العذر واستغل الفرصة ليهاجم نظام المنبوذين فى بلاده واسماهم « احباب الله » وقال اننا ننال فى جنوب افريقيا جزاء ما نفعله مع ابناء وطننا ونلفظ بعضهم ونطلق عليه المنبوذين ، ولا نسمح لهم بان يحيوا مثلنا ولا يتمتعوا بالحرية التى ننعم بها .. وحتى يتفرغ لقضية ابناء وطنه فى جنوب افريقيا قرر ان يتبتل واتفق مع زوجته على ان يعيش معها كما الاشقاء ، ولا شك ان هذا القرار يقربه اكثر من القداسة فقد اتخذه وهو فى شرخ شبابه (٣٧ سنة) وقال :

★ « .. من كان يصبو الى خدمة الانسانية بجميع احساساته ومشاعره لابد من ان يحيا حياة التبتل ، فالزعيم لا يستطيع ان يجمع بين حياة الجسد وحياة الروح .. »

★ عاش غاندى حياة بسيطة جدا ، لم يكن يرتدى من الملابس ما يستر كل جسده او يتناول من الطعام ما يملأ بطنه ، بل كان يعيش على الكفاف ، كثيرا ما يصوم ثم يفطر على الفاكهة الرخيصة ، يصنع الخبز ويغسل ويكوى ملابسه ويحلق ذقنه وشعره بنفسه ، وفى اثناء انعقاد المؤتمر الهندى الوطنى عام ١٩٠١ لم تعجبه نظافة دورات المياه فامسك بالمكنسة ونظفها بنفسه وهو العمل الذى يتأفف منه الكثيرون ، ولم يكن يقبل هدايا من احد فبعد ان قضى واحدا وعشرون عاما فى جنوب افريقيا يدافع عن ابناء وطنه الهنود ضد الظلم والاستبداد تحمل خلالها الكثير من الاهانة والضرب والسجن وكل الوان الهوان واستطاع فعلا ان يقدم لهم الخير والحرية والاحترام .

★ بعد هذه السنين رأى ان يعود الى وطنه ، وقدم اصدقاؤه له هدايا عرفانا بالجميل بعضها من الذهب والفضة ، فلم يقبلها وتشاجرت معه زوجته ، فقد اسال الذهب لعابها وقالت له ان هذا حقها ، فقد منحها الناس هذه الهدايا

بدافع الحب الخالص ، ولكنه اجابها انه لو قبل هذه الهدايا ستكون بمثابة ثمن خدماته للجالية ،الامر الذى لا يوافق عليه .. واخذت زوجته تتوسل اليه تارة بالاقناع وتارة اخرى بالدموع حتى يقبل الهدايا ، ولكنه لم يقبلها وكتب خطابا جعل فيه تلك الهدايا وديعة تستثمر لصالح الجالية فى جنوب افريقيا وختم خطابه بقوله :

★ « ان رأيى الذى لا يداخلنى فيه شك هو ان الرجل الذى يعمل فى خدمة المجتمع لا يجوز ان يتقبل الهدايا الثمينة ..»

★ كذلك تحلى غاندى بصفات الشجاعة والصدق والصبر وحب العمل وصفاء الذهن وعدم المبالغة فى اقتناء الاشياء وحب الحق ، حتى انه اطلق على كتاب ترجمته الشخصية لنفسه عنوان « فى سبيل الحق » وبجانب هذه الصفات الحميدة كان مرحا محبا للاطفال ، فى جعبته دائما مجموعة من النكات يطلقها على نفسه ليضحك الآخرين ، كما كان يضحك من اعماق قلبه كلما سمع لقب « ميكى ماوس » الذى اطلقه عليه أحد اصدقائه بسبب اذنيه الكبيرتين ..

★ اشتهرت طريقة غاندى فى كفاحه باسم « ساتياجراها » ومعناها القوة المنبعثة من الحق ومن المحبة ، وبعبارة اخرى الحركة المنزهة عن كل عنف ، فلم يؤمن بالعنف كوسيلة لتحقيق أهدافه ، فالعنف فى رأيه يؤدى بالناس الى مزيد من العنف ، وقد استطاع ، بفلسفته هذه ان يحقق ما يريد ويحارب قوى الاستعمار والطغيان والظلم ..

★ بعد قضاء واحد وعشرون عاما فى جنوب افريقيا عاد غاندى الى وطنه الهند ، عاد مستريح النفس كالجندى المنتصر فى معركته ، فقد استطاع خلال هذه السنوات ان يدافع عن ابناء وطنه ، وعن الملونين جميعا فى جنوب افريقيا وحقق لهم السلام والامن والغى القوانين المجحفة بهم ، وعلمهم التمسك بالحق وعدم العنف واطمأن على وضعهم الاجتماعى الاكثر انسانية عما كان من قبل .

★ عاد غاندى الى بلاده عام ١٩١٤ وهى السنة التى اشتعلت فيها الحرب بين

المانيا من جهة وبريطانيا وحلفائها من جهة أخرى ، وطلبت بريطانيا مساعدة الهند مقابل منحها مزيدا من الحقوق بعد انتهاء الحرب ، ووثق غاندى بهذا الوعد وشجع ابناء وطنه على الانضمام الى صفوف الجيش مما جعل بريطانيا تكسب الحرب فعلا ولكنها لم تف بوعدها كاملا للهند ، فقام الشعب بمظاهرات ضخمة تجوب الشوارع وتطالب بالحكم الذاتى ، وهاجم رجال الشرطة المتظاهرين فقتل وجرح الكثير من الهنود الابرياء ، غير ان قمة المأساة وقعت فى حديقة « جاليا نوالا » عندما اجتمع الآلاف ليستمعوا الى زعمائهم الوطنيين واذا باحد الجنرالات الانجليز يقتحم الحديقة ويأمر جنوده باطلاق النار على المجتمعين فيقتل اربعمائة شخص ، ويصيب حوالى ألفى شخص بجروح كما تقول الاحصائيات الرسمية ، وامعانا فى اذلال الهنود صدرت الاوامر بان على كل هندى يمر فى شارع معين ان يسير زحفا على بطنه ، ووجه غاندى وزملاؤه نداء الى الشعب بالا يستسلموا للظلم أو يركنوا للراحة وانما يقاوموه دون عنف فترك الشباب مدارسهم ومعاهدهم واستقال الموظفون الحكوميون وتبعوا غاندى فى تحدى القوانين الظالمة ، ورفضوا أن يبتاعوا شيئا جاءهم من بريطانيا ، ولم يفلح البريطانيون فى تهدئتهم عن طريق القوة البطش والضرب ، فقد ابوا ان يردوا على الضرب بمثله ، فلقد علمهم غاندى الكفاح المنزه عن كل عنف ، كذلك علمهم الاعتماد على النفس ، وصناعة ملابسهم بانفسهم عن طريق عجلة الغزل ، فالعمل اليدوى يشرف الانسان ويزيد قيمته ، وعندما فرضت ضريبة على ملح الطعام ، وهو طعام الفقراء ، خرج غاندى من مدينة احمد آباد ومعه سبعة وثمانون من اتباعه ومريديه رجالا ونساء فى رحلة طويلة استمرت اربعة وعشرين يوما حتى وصلوا الى شاطىء البحر عند قرية داندى ، وهناك اخذ يستخرج الملح من مياه البحر ، معلنا بذلك ان من حق الفقراء الحصول عليه مجانا ، وفعل الآف المواطنين فى المدن والقرى الاخرى نفس الشىء ، وكانت النتيجة هى الضرب والسجن والتشريد ، غير ان الحكومة البريطانية ضاقت ذرعا بهذه الاضطرابات وارادت ان تغير من سياستها القاسية

غير الانسانية فعقدت ثلاث مؤتمرات فى لندن عرفت بمؤتمرات المائدة المستديرة ولم تتوصل هذه المؤتمرات الى حل جذرى ..

* وفى أثناء سفر غاندى الى احد هذه المؤتمرات فى لندن عام ١٩٣٢ مر بمصر وافردت الصحف والمجلات المصرية صفحاتها للحديث عن هذا الثائر القديس غاندى ، وكان له معجبون كثيرون ..

* وهكذا كان غاندى ومازال نموذجا لابطال التحرير والثوار الوطنيين فى كل مكان من العالم ..

* بعد سنوات اشتعلت الحرب العالمية الثانية ، واعلنت بريطانيا ان الهند فى حالة حرب معها ضد المانيا مما أثار غيظ الزعماء الوطنيين فى الهند فاعلنوا فى المؤتمر الوطنى فى سنة ١٩٤٢ الشعار الذى تمسك به الهنود بعد ذلك وهو « اتركوا الهند » واعتقل البريطانيون بعض الزعماء ومن بينهم غاندى وجواهر لال نهرو وزجوا بهم فى ظلام السجون مع الاف المواطنين الاحرار ، وعندما انتهت الحرب ادرك الانجليز عدم قدرتهم على الاحتفاظ بالهند ، فاطلقوا سراح الزعماء ودعوهم الى تأليف حكومة هندية موحدة ، وتولى نهرو مع بعض رفاقه الحكم باسم المؤتمر الوطنى ، كما اشترك فى الحكم زعماء الرابطة الاسلامية ، ولكن الامور لم تجر كما يجب ان تكون فقد كان « محمد على جنة » رئيس الرابطة الاسلامية يهدف الى اقامة دولة مستقلة للمسلمين تحت اسم باكستان تقتطع من الهند ، وكانت نتيجة ذلك ان اكتسحت البلاد موجة من الاضطرابات والعنف استمرت شهورا ، وفى منتصف ليل ١٤ اغسطس عام ١٩٤٧ سلم اللورد « مونتباتن » اخر نواب الملك فى الهند ، تقاليد الحكم نيابة عن التاج البريطانى ، واستقلت الهند لكنها – للاسف – لم تستقل كدولة موحدة ، ذلك ان جزءا منها كان قد اصبح باكستان ، وهو ماكان يخاف منه غاندى على بلده ، اذ كان يتمنى لها الحرية الكاملة والوحدة الشاملة ، ومع هذا اصبحت الهند مثلا رائعا للدول المستقلة والمتحررة ، واستقلت الدول

الاخرى فى المنطقة تباعا بعدها ..
وحين كانت الهند تحتفل بعيد استقلالها كان غاندى يضمد جراح ضحايا الاضطرابات فى البنغال ، ويصوم تكفيرا عن خطايا الذين تسببوا واشتركوا فى هذه الاضطرابات ...

★ وهكذا كان غاندى ينتقل من مكان لاخر بحثا عن مشاكل الناس ليسهر على راحتهم ويضمد جراحهم ، لقد انشغل بقضية الانسان فى بلاده ، وفى كل مكان .. وتحمل فى سبيل ذلك الوان العذاب ، بل قدم حياته فداء لفلسفته ومبادئه ، ان غضب بعض المتعصبين الهندوس من غاندى لانه كان يولى المسلمين الذين يؤلفون ثانى طائفة فى الهند من الناحية العددية من الرعاية والحب ما كان يوليه للهندوس انفسهم ، من ثم قرر هؤلاء المتعصبون ان يثأروا منه .. وفى مساء اليوم الثلاثين من شهر يناير سنة ١٩٤٨ اصيب غاندى وهو فى طريقه لاداء الصلاة ، بعيار نارى أعقبته طلقتان اخرتان .. وتمتم يقول (رام ..رام) ومعناها « الله ..الله » ثم اطبق يديه فوق بعضهما كمن يصلى وهوى جسده الى الارض بينما انطلقت روحه الى السماء .. وانتهت حياة قديس القرن العشرين العبقرى الذى هزم بهدوئه ومبادئه الانسانية اليأس من الاحتلال .. والاستعمار واللاانسانية .....

هيلين كيلر

معجزة الارادة

« ان العمى ليس بشىء وان
الصم ليس بشىء فكلنا فى
حقيقة الامر عمى وصم عن
الجلائل الخالدة فى هذا
الكون العظيم »

« هيلين »

هل انتهى عصر المعجزات ؟
يقولون ذلك ..

ولكن هذه السيدة استطاعت أن تبرهن على ان الانسان يستطيع تحقيق المعجزات فى كل زمان ومكان طالما كانت لديه الارادة القوية ، والرغبة فى الحياة وعدم الخوف .. انها هيلين كيلر .. معجزة القرن العشرين .

كأى طفل يأتى لعالمنا ، ولدت هيلين فى السابع والعشرين من شهر يونيو عام ١٨٨٠ م بولاية الاباما فى الولايات المتحدة الامريكية ، كانت طبيعية تتحرك وتضرب بيديها وقدميها فى كل اتجاه كما يفعل الاطفال فى هذه السن ، وكانت عيناها جميلتين ، وتحكى لنا امها أنها كانت أيضا ذكية ، بل اكثر ذكاء من اشقائها ، وفى شهرها السادس بدأت تتكلم ، وهو نبوغ مبكر ، وأول كلمة عرفتها هى كلمة الماء ، ثم تمضى الايام وتصل هيلين الى شهرها التاسع عشر فتصاب بمرض الحمى القرمزية ، وتسهر والدتها السيدة (كيت) على علاجها ، ويجرى والدها هنا وهناك ويأتى بأشهر الاطباء واحدث الدواء ، وبعد فترة من العلاج قال الطبيب :

الحمى قد انقشعت وذهبت ، وهناك حقيقة أريد ان اقولها لكم اننى لم أر فى حياتى طفلا بهذه الحيوية ...

وتتحرك الايام بطيئة تحمل المفاجأة واليأس لاسرة هيلين ، فقد تركت الحمى أثرا سيئا خبيثا قلما يحدث بين المصابين بها ، اذ فقدت الطفلة هيلين البصر والسمع والنطق مرة واحدة ، ويحار والداها فى علاجها وتطلب والدتها عرضها على كل الاطباء لكى ترى أو تسمع ، ويفعل الكابتن آرثر كيلر والدها كل ما فى وسعه دون جدوى ، وتسبب الطفلة آلما للاسرة ويشفق عليها الجميع ، وتلقى حنانا كثيرا ، ربما لم تكن تلقاه اذا كانت عادية ، ومن حين لآخر يفكر والدها فى مستقبلها وكيف تنمو وتكبر وهى تعانى من ثلاث عاهات ؟

وتبلغ هيلين السابعة من عمرها ويرسل والدها رسالة الى الدكتور جون تشيشولم فى بلتيمور يستشيره فى أمر ابنته فينصحه بعرض أمرها على الدكتور (الكسندر جراهام بل) فى واشنطن – مخترع التليفون – ويقترح « بل » بدوره عليه أن يكتب الى « ميشيل أنا نيوس » مدير معهد بيركز للعميان فى بوسطن ، وتصل رسالة كيلر الى أنانيوس وبعد تفكير عميق اهتدى الى وجود مربية فى معهده تصلح للطفلة فأرسل الى والدها يخبره بذلك .

وتبدأ هيلين فترة جديدة من حياتها مع مربيتها « آن سوليفان ماكاى » فترة تميزت فى بدايتها بالعنف واليأس ، ولكنها سرعان ما تحولت الى صداقة وحب وعرفان بالجميل ، وكانت آن هى العين التى تبصر بها هيلين ، والاذن التى تسمع بها ، واللسان الذى تتحدث به ، وظلت هذه العلاقة قوية الى أن رحلت المربية الفاضلة .

ما كان لانانيوس أن يرسل تلميذته « آن » الى هيلين دون ان يعطيها نصائحه وارشاداته ، خاصة وانها أول مرة تخرج للعمل ، ولانه يعرف عنها الكثير ، فهى حادة المزاج تتسم ملامحها بالجدية والاصرار الزائد عندما تكون حالتها هادئة ، فاذا ما استثيرت تملكتها الشراسة واستبدت بها نوازع الكفاح نتيجة ما قاسته فى حياتها ، فقد نشأت كفيفة يتيمة حتى بلغت الرابعة عشرة من عمرها ، ثم التحقت بمعهد بيركنز فتعلمت كل شيء اللغة والعلم والاخلاق ، واكثر من ذلك الامل وحب الحياة ، والتغلب على الصعوبات ، واستطاع المعهد ايضا أن يعيد لها بصرها بعد تسع عمليات جراحية ، فأخرجها من الظلام الى النور لترى الحياة .

قال الاستاذ لتلميذته « آن » :

« لقد انتهت من الان ياابنتى صلتك بنا كتلميذة ، وهاانذا أدفع بك الى

العالم الفسيح كأمرأة عاملة مربية ومعلمة ، يجب أن ترعى الطفلة هيلين وتعلميها ولو من أجل ٢٥ دولارا فى الشهر ، ويجب ان تكونى متواضعة لمصلحتك أنت فستحتاجين الى حبهم لك »

ثم منحها بعضا من النقود وصندوقا صغيرا به هدية لها عبارة عن خاتم من الياقوت مما سرها وبعث السعادة فى اعماقها ، وذهبت لتودع صديقاتها وأطفالها فكانت المفاجأة الثانية ، هدية الاطفال لها نظارة سوداء ، ذلك لانهم سمعوا أن آن تعانى من بعض الآلام فى عينيها أثر العملية الجراحية الاخيرة ، فما كان منهم الا اختيار هدية مناسبة ، ثم المفاجأة الثالثة هدية من الاطفال الى هيلين ، عروسة جميلة تنطق بلفظ ماما .

ودعت آن اطفالها الذين طلبوا منها ان تلغى السفر وتظل معهم لانهم يحبونها ، لكنها اخيرا انتزعت نفسها منهم على أمل أن تقوم بزيارتهم دائما ، وركبت القطار فى طريقها الى الاباما حيث عملها الجديد ، ولم تكن الرحلة سعيدة مريحة بل كانت صعبة مرهقة .

على المحطة كان جيمس شقيق هيلين ينتظر المربية الجديدة ومعه السيدة كيت والدتها التى رحبت بآن ترحيبا حارا ثم أخذت تناقشها طوال الطريق من المحطة الى البيت فى مشكلة ابنتها ، وهل يمكن لطفلة مثلها أن تتعلم وتصبح طفلة عادية ، أو حتى نصف عادية ؟

كانت آن تستمع الى كلمات الام بدهشة ، لانها تؤمن بأن الانسان مهما قابل من صعاب ، أو أصيب بعاهات يستطيع أن يتعلم ويصبح انسانا عاديا ، لهذا حاولت أن تثبت الامل فى نفس كيت والدة هيلين ، وقالت لها أن الامل كبير فى تعليم ابنتها ، وأنها صغيرة السن — ٢١ سنه — ولديها القدرة على تعليمها ، وأنها كانت عمياء مثل هيلين ثم أجريت لها عملية لترى وكل هذا يساعدها على تربية وتعليم طفلتها بنجاح .

فى البيت رحب الكابتن كيلر بآن ، وابتسمت كيت مرحبة بها ثانية وطلبت منها ان تتصرف كما لو كانت فى بيتها بالضبط ، ثم أشارت لها على هيلين وكانت تقف بعيدا ، وتحركت آن اليها ثم أمسكت بيديها فأخذت الطفلة تتحسس يديها وملابسها وخاتمها ، وارادت « آن » أن تعطيها الفرصة كاملة لتتعرف عليها فجلست على ركبتها وأخذت هيلين تتحسس وجهها ونظارتها وملامحها ثم امسكت بعد ذلك بحقيبتها وأخذت تعبث بكل ما فيها حتى عثرت على العروسة الجميلة التى أرسلها اطفال معهد (بيركنز) هدية لها ، فأخذت تتحسسهاأيضا وتتخلل بأصابعها ملابسها وشعرها وتتعرف على ملامح وجهها ، وتضمها الى صدرها وتربت على رأسها وهكذا .

ووجدت « آن » الفرصة فى أن تبدأ تعليم هيلين اللغة عن طريق العروسة ، فأخذت يدها وشكلت فى كفها حروف كلمة عروسة ثم أخذتها بعد ذلك لتلمس العروسة حتى تدرك أن الحروف التى رسمتها على كفها تعبر عن اسم العروسة ، وكررت ذلك عدة مرات حتى ضاقت الطفلة فقذفت بالعروسة وامتنعت أن تمد يدها لمدرستها ، وحاولت آن استخدام القوة دون فائدة ، فى اليوم التالى أخذت آن قطعة من الكيك ووضعتها على يد هيلين ثم قربتها من أنفها حتى يسيل لعابها ، وفعلا حاولت أن تلتهمها لكن آن ابعدتها وشكلت حروف كلمة « كيك » على كفها حتى تعرف أن الذى ستتناوله يسمى بالكيك وهكذا .

لم يكن سهلا على الطفلة أن تعرف اللغة بسرعة ، ولم تستجب لمربيتها بايجابية ، بل كانت كثيرة الشغب سرعان ما تضيق بالدرس فتقرص آن أو تقذفها بالعروسة أو بالكوب ، حتى انها اصابتها فى وجهها فى احدى المحاولات وكسرت لها بعض أسنانها ، وكانت آن أيضا صارمة معها تصفعها عندما تضيق بها أو تخرج عن هدوئها ، ثم طلبت المربية أن تنفرد بهيلين وحدهما حتى تستطيع أن تصل الى نتيجة فى تعليمها اللغة ، واعترض أبواها فى البداية لكنهما وافقا

بعد ذلك ، وانفردت آن بطفلتها و لم يمضى اكثر من اسبوعين حتى استطاعت فعلا أن تغير من سلوكها ، أما التعليم فلم تصل فيه الى نتيجة ايجابية وانما كانت محاولات ، وعادت آن لتعيش وتلميذتها مع العائلة ، وأثنى الكابتن كيلر على أنها فعلا غيرت من سلوك ابنته ، فقالت آن :

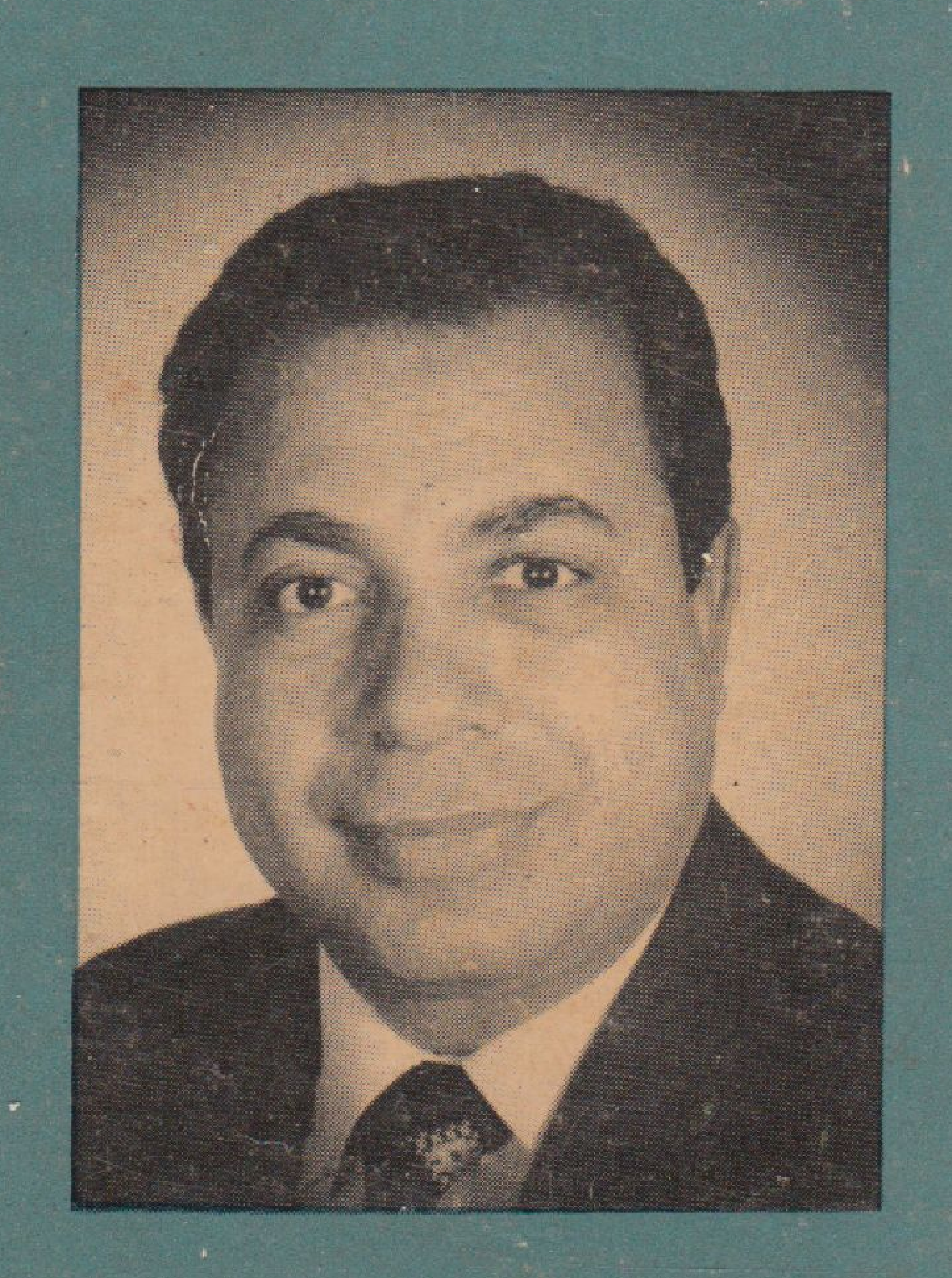
« اعطونى وقتا آخر وحدى معها وأنا أربيها وأعلمها اكثر ، لانكم أشفقتم عليها اكثر من اللازم وأغرقتموها بحنانكم ودللتموها بسبب عاهاتها ولذلك كان من الصعب على أن أعلمها السلوك واللغة ، لكن أملى كبير »

على مائدة الطعام اجتمعت الاسرة وجلست آن بجانب هيلين – وكانت هذه المرة الاولى بعد انفراد آن بتلميذتها مدة اسبوعين – وضعت المربية الفوطة حول رقبة تلميذتها فقذفت بها الى الارض ، والتقطتها آن ووضعتها ثانية على صدرها ففعلت هيلين نفس الشيء وثارت آن وأبعدت طبق الطعام من أمام هيلين ، وما أن شعرت بذلك حتى ثارت هى الاخرى وأخذت ترفس المائدة ، فامسكت بها آن لتأخذها بعيدا عن المائدة ، وتحركت عاطفة الامومة والابوة فى قلبى السيدة كيت والكابتن كيلر ، وطلبا من المربية الا تبعدها عن المائدة وأن تعيد لها طبقها ، وكظمت « آن » غيظها وقالت لهما أن الطفلة تختبرهما بعد أن عادت اليهما ، وأنها يجب أن تعرف أن أى شيء لايمكن أن يجرى حسبما تهوى ، ولو كان فى تحقيقه ما يسىء للاخرين ، لكن الشعور الابوى انتصر فقام كيلر واحضر طبقا ووضعه أمام ابنته بعد أن أجلسها فى مكانها ، وجلست هيلين هادئة ولكنها سرعان ما امسكت بالشوكة وقذفت بها الى الارض ثم غمست يدها فى الطعام ووضعته فى فمها وتحركت لتغمس يدها الاخرى فى طبق آن فمنعتها وحدث اضطراب أدى الى سقوط المياه على الارض ، ومرة ثانية امسكت « آن » بتلميذتها لتبعدها عن المائدة ، وحاول الاب أن يمنعها فقالت له :

ارجوك اتركنى اعلمها ، ساذهب معها لتملاء الدورق بنفسها حتى تشعر بالمسئولية ، وذهبتا الى مكان الطلمبة ، وبطريقتها الخاصة شرحت لهيلين طريقة

ضخ المياه ، ثم طلبت منها أن تفعل ، وامتنعت الطفلة فى البداية ، ثم اضطرت الى الاستجابة ، واخذت آن تساعدها على الضخ بينما امسكت بيدها الاخرى الدورق ووضعته تحت فوهة الطلمبة حتى يمتلىء الماء ، وفى هذه الاثناء تطاير رذاذ الماء على وجه هيلين وجسمها وسرعان ما تغير وجهها ، ثم ارتعشت شفتاها ، وأصدرت صوتا غريبا كصوت طفل رضيع ، معناه ماء ، ولاحظت آن هذا التغير فأخذت يدها الاخرى وشكلت على كفها حروف الكلمة .. كانت هيلين فى تالك اللحظة فى حال غير عادية ، أشبه بالانسان التائه الذى عثر على بداية الطريق ومعالمه ، ومن هول الموقف ودهشته أنفلت الدورق من يدها وتهشم على الارض دون اهتمام من آن ، وبحثت هيلين عن يد معلمتها حتى أمسكت بها ، وحاولت أن تشكل هى حروف ماء على كفها ، لم تصدق آن ما حدث واحتضنت تلميذتها وحدثت المعجزة ، هيلين بدأت تتعلم اللغة وهى مدخلها لتتعلم كل شيء بعد ذلك ، ولتصبح واحدة من أشهر أدباء القرن العشرين ومفكريه ، ولتترك فى المكتبة العالمية عشرة كتب ، ولتكون رسالتها أن اهتموا بالمعوقين والمكفوفين فى كل بلاد الدنيا ، فمنهم عباقرة وعلماء افذاذ يقدرون على المساهمة فى اسعاد الإنسانية وتحقيق الخير والسلام للانسان .

هكذا كانت البداية صعبة ، لكن صبر المعلمة « آن » وتصميمها على تعليم هيلين اللغة وكيف تستطيع أن تتحدث بأصابعها جعلها تنجح فى مهمتها ووصلت بعد ذلك الى أن تحفظ تلميذتها ثلاثين كلمة فى اليوم مما اوضح ذكاءها غير العادى ونبوغها المبكر برغم عاهاتها الثلاث .



* عضو نقابة الصحفيين .
* عضو اتحاد الكتاب والأدباء .
* مذيع ومعد ومقدم برامج باذاعة الشعب .
* له مؤلفات فى أدب التراجم والنقد الاجتماعى وأدب الرحلات .

وفى هذا الكتاب يقدم الكاتب دراسة لشخصيات ساهمت بقدر كبير فى اثراء الانسانية بما قدموه من أعمال خلدتهم برغم ما واجهوه فى طريق طويل ملىء بالأشواك والصعاب ... وهم :
سقراط ـ بيتهوفن ـ طه حسين ـ غاندى ـ تولستوى ـ ألبرت شفايتزر ـ ابراهام لنكولن ـ ليوناردو دافنشي ـ هيلين كيلر

الناشر



١٠١٠٢٧١٦